حياة النساء في اليمن - حكايا صديقتي فرانس هوس

لوحة الغلاف للفنانة : د. آمنة النصيري

حياة النساء في اليمن

حكايا صديقتي فرانس هوس

تأليف: كلودي فايان

ترجمة : بشير علي زندال





دار جامعة ذمار للطباعة والنشر

تأسست عام 2007م

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 112 /2008

الطبعة الأولى 1429**هـ الموافق** 2008م

دار جامعة ذمار للطباعة والنشر

تلفاكس 841846 6 967+

ذمار ـ الجمهورية اليمنية

العنوان الأصلي للكتاب :

Claudie Fayein

VIES DE FEMMES AU YÉMEN

Récits de Nagiba

Éditions L' Harmattan

5-7 rue l 'École-Polytechnique

75005 Paris

تقـــديــم

د. عبدالعزيز المقالح

صعب أن تترجم والأصعب من ذلك أن لا تستطيع أن تترجم ، تلك هي خلاصة الموقف من الترجمة عن الآخر أياً كان نوع المادة المترجمة إبداعاً أو فكراً أو علوماً . وبغض النظر عن كل ما يقال عن القصور الذي يعتري كل ترجمة لاسيما في مجال الإبداع الشعري ؛ فإنها أصبحت شرطاً ضرورياً للتناغم مع العالم من حولنا ، ولمعرفة كيف تفكر الشعوب الأخرى وكيف تبدع ، ثم كيف تنظر إلينا ، فضلاً عن الاستفادة مما وصلت إليه هذه الشعوب من تطور شمل كل مناحي الحياة ، وفي كل المستويات . وإذا كان الشعر ابن لغته – كما يقولون ويؤكدون وأنه لا يمنح بعض نفسه لمترجميه إلا بصعوبة فإن الكتابات النثرية تبدو لكثيرين من المترجمين أقل صعوبة وأسهل في الانتقال من لغة إلى أخرى ، وإن كانت محاذير غياب الدقة هناك واردة والأخطاء محتملة وتحتاج من المترجم إلى يقظة كلية واقتدار في تمثل ما ينقله من لغته المكتسبة إلى لغته الأصلية .

وما يثير ابتهاجي ويبعث في نفسي كثيراً من مشاعر الغبطة والسعادة أن أرى طلائع من شباب البلاد يجيدون اللغات الأخرى كما يجيدون لغتهم،وحين بادروا إلى ممارسة دورهم في الترجمة ، فقد بدأوا بترجمة ما كتبه الآخرون عن بلادنا التي كانت إلى ما قبل عقود قليلة ضحية العزلة وحكم الفرد

المتخلف . وهذا ما بدأ به المبدع بشير زندال الذي اختار بعد نظرة متأنية ترجمة كتاب (حياة النساء في اليمن) للطبيبة الفرنسية المعروفة كلودي فايان ، التي أحبت اليمن واليمنيين ، وتعاطفت مع قضايا الشعب اليمني منذ أول يوم وطأت فيه قدماها أرض اليمن " غير السعيد " في أواخر الأربعينيات . وبعد عودتها إلى فرنسا أصدرت كتابها الأشهر (كنت طبيبة في اليمن) ، الذي نقله إلى العربية الأستاذ محسن العيني ، وتمت ترجمته إلى لغات عدة في الغرب والشرق . والكتاب الذي بين أيدينا استقته السيدة كلودي من مجموعة حكايات واقعية عايشتها مع صديقتها " فرانس هوس" زوجة أحد المهاجرين اليمنيين ، التي تولت الترجمة ، وقامت بوظيفة مساعدة لها في عملها كطبيبة وباحثة انثربولوجية .

والكتاب ينطلق من موقف الكاتبة والطبيبة المتعاطف مع إنسان هذا الوطن ، ولكنه يختلف عن سابقه إذ أن كتابته تمت بعد قيام الثورة ، ومع بدء انفتاح البلاد على الحياة الجديدة ، وعبرت فيه عن حنين المرأة إلى اكتساب المعرفة ورغبتها في الخروج إلى الحياة لمشاركة الرجل كفاحه اليومي ، وبناء الأسرة السعيدة بعد زوال العهد البائد الذي كان ينظر إلى المرأة باحتقار، ويرى في تعليمها جريمة لا تغتفر . وفي ضوء الحقائق الواردة في هذا الكتاب يمكن للقارئ أن يجعل منها مرجعية للنظر فيما وصلت إليه أوضاع المرأة في بلادنا بعد ما يقرب من نصف قرن من الثورة على التخلف، وكيف كانت قبل أن تبدأ في تبوء مكانها الصحيح وتصبح كغيرها

من نساء العالم المعاصر شريكة في اتخاذ القرار المناسب والمعبر عن كافة الحالات الاجتماعية والسياسية والثقافية .

وتبقى الإشارة الأهم إلى الجهد الذي بذله الأستاذ بشير زندال في ترجمته الأمينة الدقيقة ، وهي في حدود ما أعلم أولى محاولاته الواثقة في هذا المجال الفاعل الإيجابي والهادف إلى التواصل مع الذات عبر الآخر . وأتمنى بل أرجو أن يستمر المبدع والمترجم بشير زندال في إمدادنا بترجماته وإبداعه فما أحوج واقعنا اليوم – كما كان بالأمس – إلى جهد كل مثقف مسؤول عن تطوير حياتنا الثقافية والفكرية .

جامعة صنعاء – كلية الآداب

في 7/ 4/ 2008م

مقدمة المترجم

كان الحاج أحمد البالغ من العمر 65 سنة من إحدى قرى(عنس) يريد الزواج من زوجة أخرى لا تنجب كي تهتم له بالأراضي الزراعية في قريته لأنه سكن المدينة منذ سنوات و قد اختاروا له ، من القرية ،(عتيقة) امرأة في الثلاثينات لأنها ترملت بعد زواج لعدة سنوات و لم تنجب . فتم الزواج و كان لا يلتقي بها إلا إذا ذهب إلى القرية ليأخذ منها غلة المحصول الزراعي الذي تم جنيه . و عندما شعر أن منيته قد دنت طلقها كي لا ترث منه شيئا، مات بعدها بأيام .

هذه قصة عرفتها عن قرب ؛ أعرف شخوصها الحقيقية و لمست نهايتها المأساوية ، جعلتني أفكر في وضع النساء في اليمن و تذكرت وضع أمي التي تزوجت في سن التاسعة بوالدي الذي كان يبلغ حينها 35 سنة. بعد العرس غادر والدي ذمار إلى صنعاء لكون أمي ما زالت طفلة و بقي فيها سنتين و عاد ليلتقي بأمي التي كانت ما تزال طفلة؛ فتركها و عاد أدراجه إلى صنعاء ليعود بعد ثلاث سنوات ليجد أمي قد بلغت و يأخذها إلى صنعاء لتعيش معه و هكذا بدأ أبي حياته في سن الأربعين مع طفلة في الرابعة عشرة.

من المأساة التي عاشتها عتيقة من عنس إلى حياة أمي الطفلة مع والدي الذي بلغ الرشد إلى واقع عربي لا زال في جاهليته و في سحقه للمرأة ، إلى جميلة بوحيرد تلك المرأة التي ضربت أروع أمثال الصبر على العذاب الذي

أصلاها به المستعمر دون أن تنبس ببنت شفة عن مكان الأحرار الجزائريين . بعد كل هذا العذاب كيف عاشت هذه الملاك ؟

عاشت محطمة الكرامة متزوجة من رجل يمنّ عليها أن قبل الزواج بامرأة عبث الفرنسيون بتضاريس جسدها .

هذه هي المرأة في بلاد العرب ، و هذا هو واقعها ، فمهما كذب الرجال ؛ فإنهم لا زالوا يئدونها و يسحقونها و هذا ما جعلني حين قرأت كتاب (Vie des Femmes au Yémen) (حياة النساء في اليمن) أن أقوم بترجمته من الفرنسية إلى العربية ليعرف الناس كيف كانت حياة النساء في اليمن في الفترة (1950- 1969م) وليعوا المعاناة التي كانت، بل ما زالت في أرجاء كثيرة من اليمن ؛ و ليراجعوا أنفسهم في معاملتهم لنسائهم و بناتهم .

لقد كتبت الطبيبة الفرنسية هذا الكتاب على مراحل ، لكن قبل الحديث عن الكتاب، لزم الحديث عن فرانس هوس.

إنها فرنسية تزوجت من يمني يدعى مهيوب و اعتنقت الإسلام عام 1948 و غيرت اسمها إلى نجيبة و عملت في المستشفى منذ ذلك الحين و قد التقتها الطبيبة كلودي فايان عام 1952 حين أتت إلى اليمن للمرة الأولى و ألفت كتابها الأول (كنت طبيبة في اليمن) و قد التقت بها في كل زيارتها لليمن في الستينات و السبعينات من القرن الماضي ؛ و عاشت فرانس بقية حياتها في اليمن حتى و فاتها قبل بضع سنين في صنعاء .

أما مراحل تأليف هذا الكتاب فهي كالتالي :

المرحلة الأولى : هي الفترة من 1965 إلى 1969 خلال زيارة كلودي فايان الثانية لليمن ، التقت فيها بفرانس هوس التي دعت النساء إلى بيتها و قامت هي و كلودي فايان بإجراء حوارات غير مباشرة مع هذه النسوة و قد ترجمت فرانس هوس كل الحوارات و أضافت الكثير من الحكايات التي عاشتها مع مريضات في المستشفى أو نساء تعرفت إليهن عن قرب .

المرحلة الثانية : عام 1979 حينما أجرت كلودي فايان حواراً مع فرانس هوس حول وضع المرأة لأنها تعيش في اليمن منذ 1948 و قد عاشت التغيرات التي شهدها وضع المرأة .

المرحلة الثالثة : عام 1989 ، أوردت كلودي فايان ملخصاً لنتيجة كل جهود الحكومة منذ نهاية الحرب الأهلية في اليمن عام 1979 لتحسين وضع المرأة و هي هنا تقصد وضع النساء في شمال الوطن .

و هذا يعني أن الكتاب هو أصلاً ما روته فرانس هوس و قد نقلته كلودي فايان من حوارات بسيطة مع النساء أو مع فرانس هوس إلى كتاب يؤرخ لحياة المرأة في فترة ما قبل الستينات لذلك سيلاحظ القارئ أن كلودي فايان لم تتدخل بالتعليق على بعض الفصول التي تتكلم عن المس أو العين الخبيثة التي جاءت على لسان فرانس هوس و ذلك لاحترامها لرأي راويةهذا الكتاب (فرانس هوس).

بالنسبة للترجمة فإنني قد اتبعت اسلوب المطابقة للصيغة وللدلالة ، كلاً على حده ، ذلك أن موضوع الكتاب الأصل دراسة علمية ، ومادته شهادات تاريخية ، حصرتها المؤلفة في (عينات) لـ(جدول بينانات) ؛ وقد تم ترجمة ذلك بمطابقة الصيغة والتي كانت أسهل بكثير من مطابقة الدلالة في الشهادات التي لا يمكنها التخلص من ذاتية التعبير والتي تطلبت جهداً أكثر .. من أجل الحصول على سلاسة المعنى في الجملة العربية.

في الأخير أشكر هنا كل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب من المراجعة والتنقيح والطباعة ولا سيما الصديق الشاعر/ عبدالوهاب الحراسي الذي تابع الترجمة منذ ولادتها إلى إصدارها في كتاب ومن مراجعة النص العربي إلى إمدادي بالنصح اللازم في شتى مراحل الكتاب إلى الإشراف على طباعة الكتاب فكان فريق عمل كامل .

بشير علي زندال

ذمار 23 / 8 / 2007

مقدمة

ولدت فرانس هوس عام 1914 في شمال فرنسا؛ و بعد أن تعرفت في شبابها على مهاجر يمني اعتنقت الإسلام و غيرت اسمها إلى نجيبة، و قد التقيتها أثناء زيارتي الأولى لليمن عام 1952 و كانت قد استقرت في اليمن منذ 1948 ، كمترجمة و ممرضة . كانت بالنسبة إليّ مساعدة رائعة أثناء عملي كطبيبة في المستشفى في صنعاء و كباحثة انثر وبيولوجية [1] أثناء عملي في المتحف الوطني بصنعاء [2].

استطعت بالتعاون معها تدوين مائتي شهادة شفهية من خلال استقبال النساء في مسكن فرانس هوس، فأنجزت معهن بحثاً موازياً و متمماً للبحث الذي أنجزه البروفسور جوزيف شلهود [3] لصالح المركز الوطني للأبحاث العلمية CNRS [4] ، و قد تمكنا من خلال هذه الأبحاث إنجاز دراسة - كانت مستحيلة من قبل - للمجتمع التقليدي في جنوب الجزيرة العربية.

مع ذلك و خلف هذه النتائج القاسية للدراسة الأنثربولوجية، فإن تلك الحوارات التي أُجريت مع هؤلاء النسوة في مسكن فرانس هوس ، على

[1] - و هو علم يختص بعلم المجتمعات المغلقة و يبحث في خصائص الشعوب

[2] - بذلت كلودي فايان الكثير من أجل تأسيس المتحف الوطني بصنعاء بمساعدة الأستاذ احمد ساري الذي أصبح أول أمين للمتحف

[3] - إن هذا البحث يعد من أهم البحوث عن الحياة اليمنية على الإطلاق، فهو مكون من ثلاثة مجلدات ضخمة تعنى بالتاريخ و الحضارة اليمنية و الحياة الاجتماعية ، الثقافية ، السياسية ، الدينية ، القبلية و قد قامت كلودي فايان بعمل بحث عن النساء كان ضمن المجلد الثالث و للأسف أن هذا العمل لا يزال باللغة الفرنسية و لم يترجم بعد إلى العربية كي يستفيد الباحث اليمني منه.

[4] - (Centre national de la recherche scientifique)المركز الوطني للبحث العلمي هو مؤسسة فرنسية تعني بالبحث العلمي و قد تأسست في فرنسا في أكتوبر 1939 و يتبع هذا المركز وزارة التعليم العالي الفرنسية و كانت انطلاقة المركز الحقيقة بعد الحرب العالمية الثانية.

فراش مسكنها المتواضع ، على آلة تسجيل أخفيت بصعوبة ، كان لديها محتوى مؤثر يتخطى إلى حد بعيد معناها السطحي .

وقد حاولت من خلال هذه الحكايات أن أتجنب التكرار الممل ، لكن بالمقابل فقد احترمت تلقائيتها الأصلية و المؤثرة أكثر من أي أسلوب أدبي.

قد يتساءل القارئ : (أكل ما في هذه الحوارات حقيقي ؟) : فأستطيع أن أجيبه بنعم. فقد سُئلت كل هذه النسوة في جو عائلي من امرأة أجنبية كن يعرفنها جيدا ، فهي بسيطة و لم يحسسن بأنه تفصلهن عنها ستارة من ثقافة أخرى، و من ملاحظاتي أن معظم من قابلتهن كن يجبن على الأسئلة بثقة وصدق و إخلاص حتى و إن كانت حول مواضيع خاصة جداً .

لجأنا إلى إستخدام القليل من المال كمكافأة لهؤلاء النسوة، فحتى و إن كنّ زوجات لرجال ميسورين فقد كن يقبلن هذا المال لإكمال مصروف بيتٍ يدفعه زوج بخيل و لكن غالباً كن نساء فقيرات يبحثن عن قوت يومهن؛ لأن ذلك الزمان كان قاسيا جدا على المعوزين.

وما زالت الحرب بين الجمهوريين و الملكيين في أوجها و أعداد كبيرة من سكان الريف الذين أصبحوا دون مصدر رزق يفرون من المناطق المتضررة جراء الحرب لجوءاً إلى المدينة [1]. كن يحكين لنا حياتهن قبل الثورة ، تلك الحياة التي لم تتغير منذ عصور و هذه الأقدار التي تبدو لنا

1 - كانت الحرب ما زالت قائمة بين الملكيين و الجمهوريين أثناء لقاء الدكتورة كلودي فايان مع النساء مما وفر لها فرصة لقاء نساء من الريف.

ساحقة قبل الثورة هي نفسها التي تساعدنا بشكل أفضل على فهم الخيار السياسي لليمن الجديد ، هذا الخيار الوحيد القادر على تغيير هذه الأقدار.

و ربما كان أكثر ما أدهشني في هذه الحكايات هو مشاهدة – أحياناً و رغم كل شيء – بريق نور للسعادة .

كلودي فايان

الفَصْلُ الأَوَّل

فتيات قاصرات

بعد ثورة السادس و العشرين من سبتمبر اهتم الباحثون و المؤسسات العلمية بوضع المرأة بشكل عام في اليمن، و قد أجريت الكثير من الأبحاث حول المرأة المتزوجة بشكل خاص ، منها هذه الإحصائية لحالات الزواج المبكر في الدراسة التي أجريت في صنعاء و خمر (قبيلة حاشد) في عام 1969 ، 1970 .

و قبل أن نورد هذه الإحصائية أود أن أنوه إلى أن النساء اللاتي سئلن لا يعرفن أعمارهن بالضبط لكن يعرفن جيدا تاريخ زواجهن مقارنة ببداية العادة الشهرية لديهن.

سئلت 200امرأة متزوجة ، منهن 112 امرأة تزوجن قبل البلوغ و قد توزعت حالاتهن كالتالي :

4 حالات : أتتهن العادة الشهرية في يوم الزواج نفسه.

8 حالات : ينتظر الزوج حتى بلوغ الزوجة قبل أن يطلب علاقة جنسية كاملة.

18 حالة : يطلب الأزواج علاقات فورا و لكن بلطف كي لا يُرفض طلبهم.

72 حالة : انتَظروا بما فيه الكفاية كي يقيموا علاقات و لكن مع ذلك قبل البلوغ

10 حالات : تسببت الرغبة المتوحشة و العنف من الزوج إلى هروب أو وفاة الفتاة الصغيرة.

إذاً عشر حالات من مائة هي علاقات حقيقية قبل البلوغ.

و قد حكت لنا فرانس هوس (نجيبة) حكايا لنساء عرفتهن تزوجن زواجاً مبكراً و هن كالتالي :

هند

تبلغ هند من العمر ستين عاماً ، تزوجت في سن مبكرة جداً (قبل أن تحيض بثمان سنوات) من رجل في منتصف العمر ، أي رجل قد بلغ الثلاثين عاماً وأكدت في حكايتها أنها كان لديها معه علاقات جنسية منتظمة قبل ثلاث سنوات من البلوغ. ثم مات زوجها بعد إنجابها أربعة أولاد عاش منهم اثنان لتحل زوجة رابعة لأخ الزوج المتوفى بعد أن طلق إحدى زوجاته الأربع لهذا الغرض ، إذ كان يشعر بميل نحوها ، و قد أنجبت هند للأخير خمسة أطفال عاش منهم أربعة . جميعهم مزارعون في نفس القرية و هم الآن يعيشون حياة سعيدة.

تقية

عرفتُ أسرة تقية من خلال زياراتنا المتعددة لبعضنا البعض ، حيث كان لتقيه ثلاثة إخوة و أخت واحدة تزوجت بشاب اسمه (علي) و لكنها توفيت إثر وضعها لمولودها الأول ، بعد سنتين طلب علي يد تقية من والديها ، و كانت ما تزال في الثانية عشرة من عمرها . و كانت فتاة جميلة و محبوبة و سمعت أمها تقول لها :

« زوج أختك رجل سخّي ، كي يتزوج أختك ، انفق الكثير من المال و لكن أختك ماتت . و الآن جاء يطلب يدك و يجب عليك أن تقبلي ».

لم يكن لدى تقية الرغبة .. فقد كانت تجد زوج أختها لطيفاً إلا أن القلق يراودها ، لكن الأم أصرت : « لا نستطيع لومه أم أنكِ تريدين أن يكون حظك تعيساً ».

و أخيراً وافقت الصغيرة.

كنت مدعوة إلى حفلة الزواج و قضيت مع العائلة الثلاثة الأيام الخاصة بالعرس . كان هناك الكثير من المدعوين من الأصدقاء و الجيران و كانت النساء منفصلات عن الرجال، وكلٌّ له رقصاته، و لاحظت أن تقية كانت متوترة و قلقة .

حاولت تهدئتها :

« زوجك لطيف ، و ليس لأن أختك ماتت أثناء الوضع فإن هذا سيحدث لك .

لقد كانت أختك سعيدة و ستكونين أنت سعيدة أيضا إن كان هذا قدركِ !».

فأجابتني :

« اعلم جيداً و لكني مع ذلك قلقة ».

أوصت الأم الزوج بعض الوصايا : « إنها ما زالت صغيرة ، لا تستعجلها ، أعطها بعض الوقت كي تتعود عليك ، و يجب عليك أن لا تخيفها و أن لا تصيبها بسوء في أول يوم » . فوعدها الزوج (علي) بذلك .

في المساء كنا نزف العروسين إلى بيت العريس و في الغرفة الصغيرة المخصصة لهما و المسماة (المزهرية) ، كان العريس علي يتصرف كصديق مع تقية . و في الصباح سمعته يقول باسماً لحماته : « لقد فعلت كل ما تريدينه ». و هكذا مرت الأيام التالية .

أما أنا فقد غادرت في اليوم الثالث و قلت لتقية : « أرأيتِ كم هو لطيف معك، احرصي على أن تكوني أنت لطيفة أيضاً ».

و بعد فترة ، أوضحت لي الأم أنه مر أسبوع و لم يحدث شيء .

بدأ علي يفقد صبره و ذهب إلى الأم شاكياً : «لقد حرصت أن أكون ودوداً معها و لكنها كانت دائما تخاف مني خاصة عندما أقترب منها ». نصحته الأم بأن يكون أكثر حزماً معها عندما يظهر رغبته .

في صباح اليوم التالي ، خرج علي من غرفته لتناول الإفطار مع أسرته قائلاً بأن المشكلة ما زالت قائمة (لم يجرؤ علي على فعل شيء لأنها اصفرت بأكملها من الخوف) . في الظهر عاد الأهل إلى البيت . لم تكن تقية موجودة في البيت و لم يرها احد تخرج . فاتجه الأهل و الجيران للبحث عنها في كل مكان .

و لعدة أيام لم يجدوا شيئاً و بدا أن تقية قد اختفت . ثم أكتشف جسدها الصغير البائس مغطىً بالجروح مخفيا بين أشجار الصبار التي لا تبعد كثيراً عن المنزل.

ما الذي حدث ؟ هل ضربها الزوج و قتلها في لحظة غضب ثم جرها إلى هنا ؟ هل فرت لتلتقي بشخص خطر؟ الله وحده يعلم و لكننا لا نعلم شيئاً .

خيرة

فتاة ذات 13 عاماً لم تأتها العادة الشهرية بعد ، تزوجت منذ ستة أشهر بجندي25 عاماً . هي الزوجة الأولى و فوراً انتظمت علاقة جنسية هادئة وكاملة وهما يسكنان مع والدي الزوج. و خيرة تحب زوجها و لم تندم على ترك أهلها و لهذا وجب الحديث عن حالتها أيضاً .

كاذية

استمرت هيمنة العادات القديمة فيما يخص حق ابن العم في ابنة عمه و هذا الحق يعطيه امتيازاً في أن يدفع أقل من غيره كمهر و غالباً ما تكون هذه العادات سارية في الريف و تقل قليلاً في المدن.

و كاذيه التي مازالت صغيرة جداً ينطبق عليها ما ذكرنا آنفاً، حيث و إن أحد أبناء عمومتها الذي يكبرها بسنين كثيرة تقدم للزواج منها و كانت كاذيه تحترمه ،لكن عندما أراد إقامة علاقة معها في فترة البلوغ لم تستطع تحمل ذلك ؛ فهربت إلى والديها ، فتوجب عليهم إرجاعها و لكن الزوج أراد الطلاق.

و قد أدى هذا إلى نشوء خلافات دائمة مع أبيها؛ و عقاباً لها رفض تزويجها لآخر لعدة سنوات حتى توفي . تزوجت بعد ذلك بالزوج الثاني و عاشت معه لتنجب ثمانية أطفال (عاش منهم طفلان فقط) و هي الآن سعيدة منذ زواجها الثاني قبل 22 عاماً.

نورا

حالة مغايرة لما أسلفنا من حالات؛ حيث استفادت نورا من معاناة والدتها التي تزوجت في الثامنة من عمرها بزوج أكبر منها بكثير طالبها بعلاقة جنسية بعد حيضها الأول و نتيجة لذلك اضطربت علاقتهم الزوجية،واقترب الأمر من الطلاق بعد هروبها إلى بيت الجيران إلا أن أهلها علموا بما حدث ،فأقبلوا لأخذها، و توصلوا مع الزوج إلى أن يطلقها ليكتشف الجميع بأنها حامل بنورا التي وضعتها و كان عمرها لا يتجاوز الثانية عشرة . فوعدت نفسها أن تمنع عن ابنتها نفس المصير .. و النتيجة أن زوجت ابنتها بعد بلوغها التاسعة عشرة بابن عمٍ لها، يبلغ الحادية و العشرين و هذا الزواج يعدُّ من الحالات النادرة.

أمينة

تزوجت أمينة و هي صغيرة جداً ؛ (خمس سنوات قبل بلوغها) . لقد كان زواج (شغار) : أخوها تزوج في نفس اليوم من أخت زوجها .

مازال زوجها حيا و لكنه طاعن في السن و لم يعد قادراً على العمل أبداً لأن ذراعه قد كسرت . أنجبت ثمانية من الأطفال ؛ عاش منهم سبعة و مات واحد و قد كبروا و لم يذهبوا إلى المدرسة و لهذا فإن جميع أفراد الأسرة يتسولون في صنعاء . و تعمل أمينة عملاً شاقاً طوال اليوم و تقول في ذلك :

« لكي نأكل يجب أن أحمل الماء حتى يُثقب رأسي » .

و حين يأتي المطر يعودون إلى قريتهم في (خولان)، ليزرعوا قطعة أرضهم الوحيدة.و في هذه الفترة يكونون أقل تعاسة .

سعيدة

زُفت سعيدة في سن الحادية عشرة من عمرها إلى رجل عمره خمسون سنة ؛ و كان قد تزوج في وقت مبكر من ابنة عمها التي توفيت، فأراد والداها أن تحل سعيدة محلها؛ و لم تبق معه أكثر من شهر : فقد عاشت في رعب نتيجة لمحاولاته القيام بعلاقة جنسية منتظمة إلى أن هربت إلى بيت أبيها و أخيراً طُلقت .

و بعد سنتين زوّجها والداها برجل هو الآخر في سن الأربعين تقريبا، كان قد تزوج قبلها بخمس و عشرين امرأة.

هو من عائلة ثرية ، و كان يدفع مهراً ضخماً و لم تبق معه أي زوجة من زوجاته إلا فترة بسيطة، لأنه كان يحب التغيير. و قد أغرى المال الوالدين .

كان لدى العريس 15 طفلاً كلهم ماتوا في سن مبكرة . سعيدة أيضاً فقدت أطفالها السبعة قبل عامهم الثاني ،و زوجها اليوم يبلغ من العمر الستين و قد بدد ما كان لديه من أموال و أضحى يعيش في منزل يخص زوجته . إنه الآن عسكري يستلم راتباً متواضعاً و لكن سعيدة قالت لنا أنه (يتدبر أمره) إضافة إلى الراتب . و هو يضربها و لا يفكر إلا في مضغ القات . و هو عاجز جنسياً منذ عدة سنوات، و(سعيدة) ليست سعيدة و يبدو عليها ملامح الشيخوخة رغم أن عمرها 35 عاماً .

سعيدة (2)

عمرها ثلاثون عاماً، إنها شابة جميلة ! كانت قد تزوجت في سن العاشرة من بنَّاءٍ في الثلاثين من عمره و لم تصل سن البلوغ إلا بعد عامين من زواجها وبالرغم من ذلك انتظمت علاقتهما الزوجية قبل بلوغها بعام؛
و قد أنجبا ثلاثة أطفال ، صحتهم جيدة الآن .

مات زوجها وهي في العشرين؛ و لكن سعيدة التي كانت تحبه جداً لم ترغب أبداً أن تتزوج بعده و هي لا تعمل ؛ فعائلة زوجها الميسورة تعطيها ما يكفل لها تربية أطفالها ، والعيش بشكل متواضع.

تقية (2)

هي أيضاً لم يكن عمرها حين زوّجوها برجل عمره عشرين عاماً إلا عشر سنوات و لم ينتظرها لتنضج كامرأة إلا ثلاث ليالٍ .

بلغت في وقت متأخر، و حملت مباشرة، و أنجبت تسعة أطفال عاش منهم أربعة.

قالت لنا:« في البداية كنت خائفة منه! و لكني تعودت عليه في ما بعد .. تعودت تماماً » .

و لم يتزوج زوجها بامرأة أخرى . و ما زالا سعداء معاً !.

علیمة

في أحد الأيام أثناء و صولي إلى القسم الذي أعمل فيه بالمستشفى، علمت أنهم قد استقبلوا أثناء الليل فتاة عمرها حوالي 12 عاماً مصابةً بحمى قوية ، و كانت أمها بجانبها فحكت لنا الأم حكايتها : « لقد تزوجتُ و أنجبتُ 12 طفلاً و كلهم ماتوا في سن صغيرة ما عدا ابنتي هذه، عليمة » .

و لكن أبا عليمة كان يريد ولداً فتزوج على أمها . كانت الزوجتان تتشاجران غالباً، و هكذا طلق الزوج أم عليمة فغادرت و تركت طفلتها الصغيرة لوالدها . لكن الفتاة التعيسة لم تتوقف عن البكاء و هربت بعد أسبوع لتلحق بأمها و لم يأتِ الأب للبحث عنها . و هكذا عاشت عليمة و أمها معاً و لكن بدون معونة من أحد، و لا مصدر دخل؛ فكانت الأم تعمل لدى بعض العائلات . و عليمة تساعدها بأقصى جهدها . فكانت تغذيتها سيئة، و كانت متعبة فسقطت مريضة و توجب إدخالها إلى المستشفى .

لقد كانت فتاة ضامرة و شاحبة و مع ذلك فمن فرط العناية تحسنت حالتها و في أحد الأيام (و قد قاربت على الشفاء و كانت تستطيع الخروج تقريبا) أتى والدها لزيارتها و قال لها:

« أنتِ الآن بخير يا عليمة ، لقد وضعت زوجتي لتوها مولودها الثاني؛ ستعودين معي لتساعدينا في العمل.

فردّت : « أريد أن أبقى مع أمي لا أستطيع العيش بعيداً عنها.. »

و رفض الأب أن يعدها بشيء.

كانت عليمة تقول :« لن أعود معه للحياة مع زوجته التي تكره أمي ، أفضل أن أموت على أن أترك أمي ». و بدأت من جديد في النحول و الضعف و لم تعد تريد الأكل و كانت تتكلم بصعوبة ، و في صباح أحد الأيام أثناء و صولي إلى المستشفى ، أعلموني أنها ماتت ليلاً ».

لطفية

لقد كانت لطفية يتيمة الأبوين ، كانت تحت رعاية أخيها .. حيث كانت تعمل كخادمة لدى زوجته. و في أحد الأيام غادر الأخ ليمكث لدى والدي زوجته المسنين ، ليزرع لهما مزرعتهما الصغيرة . ولم يكن يستطيع اصطحاب لطفية . لقد كانت شاحبة و ناحلة فوضعها في المستشفى و لم يأتِ إطلاقاً لأخذها .

و بعد سنة وافقت سيدة من المدينة على أخذ لطفية إذ كان لديها عدة أطفال و كانت تبحث عن فتاة للعناية بهم .

لقد كانت سيدة طيبة و لطيفة و كان لدى زوجها مصدر دخل جيد . فأصبحت لطفية سعيدة و لبست ثيابا جديدة و تغذت جيداً و عوملت كأحد أفراد العائلة . و عندما أصبحت شابة أراد سيداها تزويجها ، فوجدا لها رجلاً عمره ثلاثون ؛ تزوج مرتين مسبقاً ، و زوجوها به . و لكن أم زوجها كرهتها فطلقها زوجها الذي تعب من المشاجرات و كانت لطفية سعيدة لأنها عادت إلى أسيادها القدامى . و بعد سنتين و جدوا لها عريساً ثانيا ، هو أيضا تزوج من قبل ، و لكن بامرأة مريضة دائما ، فتزوج من لطفية كي تعتني بها . لقد كان رجلاً طيباً ، و كانت لطفية ستكون سعيدة لو لم تكن الزوجة الأخرى غيورة جداً ؛ فقد كانت تتركها تقوم بكل الأعمال قائلة : « لأنك أخذت الزوج تستطيعين أن تأخذي العمل أيضا ! »

و هكذا طُلقت للمرة الثانية ؛ فكانت تبكي كثيراً ، و عادت إلى سيدتها الأولى للمرة الثالثة .. و قد أصبح عمرها ، الآن ، قريباً من العشرين.

لقد أصبحت شابة جميلة و ناعمة و نظيفة و كانت تقول : « لقد انتهى كل شيء ، لم أعد أريد الزواج فأنا مرتاحة بجانبكم » .

لكن السيدة كانت تجيبها :

« لقد كان حظكِ تعيساً في المرتين السابقتين ؛ و ليس هذا سبباً يدعوك إلى العدول عن الزواج ، فأنت أيضاً يجب أن تعيشي حياتكِ ».

-« ولكن ليس لدي نصيب» .

-« سيأتي نصيبكِ » .

و فعلاً أتى نصيبها . أرمل ليس بالعجوز و لا بالشاب ، لقد كان له ولدان قد تزوجا.. و لم يردِ البقاء دون زوجة ، لقد كان أفضل نصيب لها ؛ زوج لطيف ! كان يكلمها بلطف و يعطيها كل ما ترغب به ؛ و كان يتركها تتصرف كما تريد و أحبته لطفية كثيراً و كانت تقول لي :

« إنه كل شيء بالنسبة لي ؛ فهو أبي و أمي و أخي و زوجي في الوقت نفسه » . و أنجبت صبياً ثم فتاة جميلة و أصبحت امرأة جميلة. و أخيراً أصبح لديها نصيب في هذه الدنيا .

حديقة

هي أيضا تزوجت صغيرة جداً و كان زوجها أكبر منها بكثير، و لأنها ما زالت صغيرة و لم تبلغ بعد فقد انتظرها زوجها سنتين، ثم بدأت علاقتهما الأولى ؛ حملت بسرعة و أصبحت أماً لطفلة و لم تأتها العادة الشهرية إلا بعد سنتين ؛ بعد أن أتمت الرضاعة و لكنها لم تتوافق مع أم و أخت زوجها ؛ فلجأت إلى أمها و اصطحبت ابنتها ، وطُلّقت و لم تبق مطلقة إلا سنة فقط. فقد زوجّها والداها بسرعة . و لكنها لا زالت تحب زوجها الأول.

متمنيةً بأن تعود إليه ، كانت بغيضة جداً تجاه زوجها الثاني إلى أن طلقها . لم ينسها الزوج الأول أبداً بدوره ؛ و كان يريد دائماً استرجاعها و لكن الوالدين لم يوافقاه على ذلك . و هكذا توجب عليها قبول زوجها الثالث. و لحسن الحظ فقد مات سريعاً بعد أن أنجبت منه طفلتان .

الآن هي تعيش بالتناوب عند بناتها الثلاث المتزوجات اللاتي أعطينها سبعة أحفاد . لكنها قالت لنا بأنها أبداً لم تنسَ زوجها الأول .

حتى الآن ليس لديها أدنى حظ . عمرها لم يتجاوز واحداً و عشرين عاماً و هي مع زوجها الثالث .

تزوجت في الثانية عشرة و لكن بعد أربع سنوات غادر زوجها إلى المملكة العربية السعودية مع زوجة أخيه و هكذا كان هناك طلاقاً مزدوجاً .

أما زوجها الثاني فقد كان عنيفاً جداً ؛ كان يضربها حتى أنه كان يريد خنقها و أثناء هروبها من النافذة كسرت ساقها و قد طلقت بحكم من القاضي.

أخيراً منذ عدة شهور تزوجت برجل هربت زوجته ، أيضاً ، إلى المملكة العربية السعودية و أصبحت هناك مأوىً للعشاق .

معه أصبحت سعيدة و ربما ستستمر سعادتها وقتاً طويلاً .

كريمة

عمرها 45 سنة ، لقد كانت صغيرة جداً عندما زوّجوها بأحد أبناء عمومتها قبل سبع سنوات من بلوغها ، أما زوجها فقد كان عمره ثلاثين عاماً و قد انتظر ثلاث سنوات قبل إقامة أول علاقة جنسية معها . لقد كان شيخاً في القبيلة و يحظى باحترام شديد في قريته. أثناء زواجهما الذي استمر ست عشرة سنة أنجبت عشرة أطفال عاش منهم اثنان .

و مع موت زوجها ، فقدت بيتها لأنه كان في ملك الحكومة فعاشت مع أحد أبنائها الذي تركها ليتزوج فيما بعد في مدينة أخرى .

و هكذا بعد سنة قررت الزواج ، لكن كان ذلك انحطاطاً خطيراً لأنها تزوجت من (مُزَّين) ؛ طبال كان يقرع الطبل في الأعياد و مناسبات الزواج. و منذ ذلك الحين أعتبر ابنها بأنها ألحقت به العار فلم يعد يحادثها أو يرغب أن يراها . زوجها الحالي ليس غنياً ، فحين يقوم بجولة في القرى المجاورة فإنه لا يترك لها إلا القليل من المال ؛ و عندما ينتهي المال فإنه يتوجب عليها أن تتسول لكي تعيش حتى عودته.

فتيات زوجات و صبيان أزواج

ليست الفتيات هن الوحيدات من يتزوج في سن مبكرة :

أمينة [2]

لم يكن عمر أمينة [2] إلا إحدى عشرة سنة حين زوّجوها من صبي عمره اثنا عشرة سنة .

غير أنه تصرف ببطولة لأن زوجته أصبحت امرأة في نفس ليلة الزواج، وهو الأمر الذي جعله ينال رضا الجميع .

مع أن زواجهما لم يستمر إلا بضعة أشهر (لأن العريس الصغير المغامر بقدر كونه ملتهباً قد ترك عائلته ليلتحق بعمه للعمل في بلاد الغربة و طلق زوجته سريعاً) إلا أنها ما زالت تحتفظ بذكرى جيدة معه . و هكذا زوّجوها بجارٍ عمره أربعون عاماً و قد تزوج قبلها سبع مرات .

أنجبت منه ثمانية أطفال عاش منهم أربعة فقط (احدهم يدرس في موسكو ليصبح طياراً). لكن زوجها مات و منذ أن أصبحت أرملة و هي تعمل في المستشفى .

(ثابتة) ، (ذكية) و (خديجة)

تزوجن قبل البلوغ بعدة سنوات من صِبيان في نفس أعمارهن و لكنهم كانوا متلهفين بقوة و بارعين لأن العلاقات الجنسية بين الأزواج حدثت فوراً و بدون مآسٍ (!!)

فاطمة

أما بالنسبة لفاطمة ، من (رداع) ، فإنها تزوجت في الثامنة من العمر من ابن عمها الذي كان في نفس عمرها . منذ أول ليلة (كانا ينامان جنباً إلى جنب و كانا يتعلمان معاً). هكذا أوضحت لنا فاطمة بسعادة .. لقد كانت فخورة و في نفس الوقت خجولة ! و الآن عمرها ثلاثون و لديها طفلان (حملت خمس مرات) و لا زالت الزوجة الوحيدة ؛ و هي و زوجها يحبّان بعضهما جداً .

كاذية

تزوجت كاذية التي عمرها تسع سنوات منذ سنة بصبيٍ عمره خمس عشرة .. من نفس قريتها . إنها طفلة فاتنة و مرحة تعيش حاليا مع عائلة زوجها . و لدى زوجها سبعة اخوة و أخوات. و لم يقم الزوجان حتى الآن بعلاقة جنسية لأنها لم تبلغ بعد .

بالنسبة له فإنه يريد العلاقة و حين يقبّلها يصيبها بالذعر و حماتها تفهمها و تحميها .

في الليل ، تنام أحيانا بالقرب من حماتها و أحيانا بالقرب من أخوة زوجها فهي تلعب معهم ؛ و غالباً ما تتشاجر.. و لكنها أيضاً تساعد حماتها في عمل البيت . وعملها المفضل هو غسل الملابس . و هي تحب جداً الذهاب إلى المدرسة كما يفعل أخوة زوجها و لكن الفتيات في هذا المنزل لا يذهبن إلى المدرسة .

و هي لا تندم على ترك عائلتها . لأنها تحب حماتها كثيراً التي تبدو طيبة و لطيفة . و بعد ثلاثة أشهر سيأتي والدها لأخذها وسوف تقضي مع عائلتها هي و زوجها بعض الوقت . و يبدو أنها ستبدأ حياتها في هدوء و نعيم.

زينب

في أحد الأيام كنت في إحدى القرى ، أرافق امرأة كنت قد عالجتها في المستشفى . لأن الوقت كان متأخراً فقد قضيت ليلتي في بيتها و كان يوجد في نفس البيت طفلة جميلة جداً عمرها ست أو سبع سنوات ، ذات عيون ذكية و كانت متلهفة للعمل في البيت ؛ تكنس الصالة و تساعد أمها . فقلت لها:

« رائع يا زينب ، عندما تتزوجين سيكون لدى زوجك الكثير من الحظ السعيد. فأنت ستعرفين مسبقاً عمل كل شيء في البيت ».

فنظرت إليّ بابتسامة جميلة و قالت لي :

« زوجي ! إني اعرفه مسبقاً و سنتزوج قريباً ».

لقد كان ابن أحد الجيران يكبرها بقليل. والداهما متحابان و قد قرروا زواجهما حتى قبل ولادتهما و قد كانا يعرفان ذلك ، بل و يريدان أن يكونا معاً دائماً.

يا للمسكينة زينب ! فقد مات الصبي بعد ذلك إثر سقوطه من الجبل أثناء ذهابه للبحث عن نعجة ضالة .

و لم ترد زينب أن تتزوج شخصاً أخر أبداً و أصبحت حزينة جداً و شاحبة و ضعيفة . و لم ندر أبداً من أي مرض ماتت .

بالنسبة لي ، أعتقد أنها ماتت من الحزن » .

الفَصْلُ الثَّانِي

الضرائر (الطباين)

و المطلقات

صوفيه

لقد تزوجت صوفيه من بنّاءٍ أنجبت منه أربعة أطفال. كانوا فقراء جداً و كان الزوجان يعملان بجدٍ ليبنيا لهم بيتاً و كانت صوفيه هي من تحمل الأحجار على ظهرها .

و انتهى بزوجها الأمر أن أصبح ميسور الحال لكن بالنسبة إليها فقد أصبحت الآن متعبة و ناحلة و عجوز فتزوج عليها .

في البداية لم ترد صوفيه أن تسكن الزوجة الجديدة في المسكن الذي بنته مع زوجها . استقر الأمر بالأسرة الجديدة خارجاً ، ثم بدأ زوجها يتغير: لقد كان يعود من حين لآخر للأكل لدى عائلته الأولى ، لكنه لم يكن يحمل شيئاً بين يديه (غالباً ما يتكفل الأزواج بشراء الأشياء من خارج المنزل.) و بدأ الأطفال بالافتقاد لوالدهم .

قالت لي صوفيه : « أرى ذلك جيداً ، من الأفضل أن يحضر زوجته الثانية للعيش معنا . فبهذه الطريقة إذا احضر لها شيئاً سيحضر لنا أيضاً و لن يجوع الأطفال بعد الآن ».

ميمونة و مريم

أحياناً تتفق الضُرر معاً بشكل رائع. هذه حالة ميمونة و مريم المتزوجتين من نفس الرجل اللتين أتتا معاً لتحكيا لنا قصتهما .

لقد كانت ميمونة هي الزوجة الأولى و عمرها خمسة و عشرون عاماً والدها هو (سيّد) من نسل الرسول (ص) . رجل متعلم يصلي في الجامع و يكتب للناس أوراقهم و لكنه فقير جداً و قد زوجها لتاجر بسيط (و هذا يعتبر انحطاطاً بالنسبة لسيد و قد تضاءل هذا الشعور كثيراً في أيامنا هذه) لكنها ترملت بعد سنتين. و زوَّجها والدها لتاجر آخر أنجبت منه طفلان ثم تزوج بأخرى (مريم) بنفس عمرها و لديها طفلان و يعيش الجميع معاً و يتوافقون جيداً.

فاطمة

« عندما عرفتها كان عمرها خمسة و عشرين عاماً و لم تكن سعيدة ، فقد تزوجت لكن زوجها مات في وقت مبكر. كانت تعيش مع أبيها الأرمل و أخيها في مزرعة صغيرة خارج صنعاء . و كان أخوها متزوجاً من اثنتين كُنَّ يجعلنها تعمل كثيراً .

سقطت فاطمة مريضة بالسل . و أدخلت المستشفى في قسمي و قد كانت فعلاً مهمَلة من عائلتها فلم يأتِ أحد لرؤيتها و لم يحضر لها أحد شيئاً أبدا.

تعافت بعد سنة و نصف ؛ و عادت إلى بيتها مليئة بالأسى ، و رأيتها عائدة بعد سنة ، كانت نساء أخيها قد استقبلنها استقبالاً سيئاً . و طلبت مني أن تعود إلى المستشفى كخادمة . قد كانت طيبة و رحيمة ، وقد قبلوها بكل سرور.

مع أنها كانت تكسب القليل من المال إلا أنها كانت تعطي والدها البعض منه.

و أرادت أن تتعلم كيف تعطي الحقن ، و مع أنها لم تكن تعرف القراءة ألا أنها أصبحت ممرضة رائعة . و اقتصدت كثيراً إلى أن استطاعت أن تحج إلى مكة .

كان عمرها تسعة و ثلاثين حين تعرفت على رجل يكبرها قليلاً كان يعمل في الصيدلية و تزوجته . و كانا سعداء و تحابا كثيراً.

بيد أن فاطمة و بعد عدة سنوات لم تنجب طفلاً فأراد زوجها اتخاذ زوجة أخرى .

حزنت فاطمة و عادت إلى المستشفى و لكن مع ذلك لم تطلق و أنجبت الزوجة الجديدة طفلين .

كانت فاطمة لا زالت تحبه و بدأت تحب الأطفال أيضاً . و شيئاً فشيئاً أصبح لديها الرغبة في العودة إلى البيت حتى و لو مع امرأة أخرى . لقد كانت امرأة حكيمة و ذكية و اليوم يعيش الجميع في وئام وسعادة. »

سعيدة (3)

لقد كان لدى سعيدة ، من (كوكبان)، حياة مضطربة جداً ، فقد تزوجت صغيرة جداً من رجل كان قد تزوج قبلها بسبع نساء و لكنها لم تكن تعرف الشيء الكثير عن عمل البيت .

و لم تكن حماتها تحبها و عندما مات مولودها الأول لم تعد لدى زوجها الرغبة بالاحتفاظ بها ؛ فلم يعد يعطيها أي شيء لتأكله . و في أحد الأيام عندما كانت تحتج ، قال لها :

« اخرجي من بيتي ، ليس عندي لكِ شيء . و الشيء الذي تريدينه،اذهبي و اطلبيه من عند أخيكِ ».

و لأنها تزوجت زواج شغار : أخوها تزوج في نفس اليوم من أخت زوجها، كانه في هذه الحالة يتوجب على الزوجين أن ينفصلا في نفس الوقت.

بالنسبة للأخ فانه كان يحب زوجته كثيراً و يريد الاحتفاظ بها فلم يقبل بإطعام أخته و كان يقول: « زوجك ! لا دخل لي في هذا الموضوع ».

فذهبت سعيدة شاكية إلى مدير المستشفى حيث كان زوجها و أخيها يعملان كخدم في المستشفى ؛ فوضع المدير قيود الحديد في أقدامهم بانتظار أن يقرر القاضي . فقرر القاضي أن تطلق سعيدة بشرط أن لا تطلب شيئاً من

حقوقها في الطلاق ؛ لا ملابس و لا نفقة . وافقت و أتت هي أيضا للعمل في المستشفى.

لم تبقَ سعيدة مطلقة إلا ثلاثة أشهر ثم تزوجت من مجنون لم تستطع أن تعيش معه لأنه كان يهددها بالخنجر (الجنبية) فطلقها القاضي من جديد و بقيت وحيدة مدة سنتين و كان زوجها الثالث خدوماً جداً و لبقاً أيضاً ؛ عندما كانت أي امرأة تخرج من بيت زوجها إلى بيت أهلها غاضبة فغالبا ما يكون هو من يأخذه الزوج كوسيط ليذهب إلى أسرتها، و يرجعها و يرتب كل المواضيع . في أحد الأيام ذهب ليرجع امرأة أحد أولاد عمومته لكنه تدخل في قضية شنيعة ؛ فقد كان هناك بلا شك شخص يحقد عليه دس له السم في الطعام فمات مسموما .

زوجها الرابع ، لقد كان أخو زوجها الذي مات مسموماً ، فقد كان يتوجب عليه أن يتزوج من زوجة أخيه المتوفى كي ينفق على أسرة أخيه . و قد ظلاّ متزوجين عشرة أعوام أنجبت خلالها أربعة أطفال عاش منهم ثلاثة . لكن كان لدى سعيدة ثلاثة أطفال من زوجها الثالث و لم يتوقف أبناء العم الصغار عن التعارك لكن الأب كان يغار من أطفالها و من الحنان الذي كانت تكنه للأطفال السابقين و طلقها أخيراً ، و قد بقيت سعيدة التعيسة مرة أخرى وحيدة لمدة خمس سنوات .

و تزوجت من جديد بالخامس- إنه عسكري فقير -.

لكن يبدو عليه أنه رجل طيب و ربما أخيراً ستكون قريرة العين.

هايلة

تزوجت هايلة (و هي من وادي السِر في ضواحي صنعاء) من مزارع يكبرها في السن قليلاً و أنجبت له 12 طفلاً ، ثلاثة منهم فقط ما زالوا على قيد الحياة و كانت هايلة الزوجة الوحيدة وحتى تزوج زوجها بامرأة أخرى لكنها لم تكن تعمل جيداً فطلقها بعد سنة .

و لا تعرف هايلة عمرها و لا كيف تحصيه « إن الله يحصي عنَّا » قالت لنا.

و هي مع زوجها في صنعاء منذ شهرين فقد طردهم الجفاف من قريتهم و قد اصطحبوا معهم بقرتهم التي كانت ستموت جوعاً .

و قد بقيت أم زوجها في بيتها و يهتم بها بعض الجيران ، و هما بانتظار هطول المطر الذي سيسمح لهما بالعودة إلى قريتهما للعمل في حقلهما.

فاطمة (2)

فاطمة أخرى ، و هي من حجة ، متسولة و فقيرة . كانت قد تزوجت في سن مبكرة من رجل يبلغ الأربعين ، متزوج مسبقاً . لم تتفق مع الضرة فطُلّقت بعد ستة أشهر .

و هكذا عادت وبقيت مع والديها لمدة سنتين ثم زوجاها برجل أعمى كان يكسب قوته القليل بعمله في تقشير حبوب البن .

أنجبت منه خمسة أطفال لكنهم ماتوا في سن مبكرة ثم فقدت منزل والديها: كان يجب أن تبيعه لتساهم في دفع الدية لتنقذ أحد أبناء عمومتها الذي كان قد قتل رجلاً ثم اعدم فيما بعد .

أما الآن فهي تكسب بعض ريالات ماريا تيريزا [1] مقابل حملها الماء إلى البيوت لكنها مع ذلك تتسول ، كانت تقول لي :

« آه لو كنت تعلمين كم هو محزن أن تكوني هكذا جالسة بقرب أحد الأبواب على الطريق بانتظار أن يعطوكِ القليل من المال . كم هو أفضل لو استطاع المرء أن يعمل و يعيش كما الآخرين . اليوم ليس لدي إلا ما يكفيني لشراء كسرة خبز ».

---

[1] - و يعرف أيضاً بـ الريال الفرنسي أو (الفرانصي) (Thaler Marie Thérèse) و هو دولار الإمبراطورة النمساوية المعروفة التي طبعت صورتها على إحد وجهي العملة و على الوجه الأخر شعار الإمبراطورية النمساوية المتميز بالنسر ذي الرأسين و التاج الإمبراطوري ، و المؤرخ سنة 1780 م ، و يزن ما بين 19.5 – 19.6 غراماً من الفضة. و من المرجح أن هذا التالر أو الدولار كان يضرب أو يصنع في بلاد غير النمسا بعد زوال الإمبراطورية ، و خصوصاً بعد منتصف عقد العشرينات من القرن العشرين . و ما زال التعامل به و تداوله مستمراً في اليمن ، و في أنحاء أخرى من الجزيرة العربية في المعاملات الرسمية و التجارية حتى صدور العملة الورقية في سنة 1964 م بالرغم من ضرب عملة فضية مقابل الريال باسم الجمهورية آنذاك ، و قد بقي الريال مقسماً إلى أربعين (بقشة) حتى استبدل بذلك النظام العشري سنة 1975 م حين أصبح الريال مائة فلس .

نورا (2) و سعيدة (4)

بالنسبة لنورا و سعيدة المتماثلتين تقريباً من حيث السن (ثلاثون سنة) فإن الحياة لم تكن سهلة على الفور .

عندما تزوجت نورا في الثانية عشرة كان زوجها الذي عمره ثلاثون عاماً قد تزوج مسبقاً بثلاث نساء مُتن جميعاً .

لقد كان حداداً يكسب جيداً قوت يومه . كانت نورا قد أنجبت ثمانية أطفال (مات أربعة و لا زال أربعة على قيد الحياة) عندما قرر زوجها الزواج بامرأة ثانية ، هي سعيدة التي كانت قد تزوجت مسبقاً في الحادية عشرة من رجل غادر للعمل في عدن و من هناك ، طلقها .

في البداية لم تتفق الزوجتان جيداً فطُلقت نورا و بقيت سعيدة عند زوجها و أنجبت له سبعة أطفال عاش منهم ثلاثة .

كانت نورا، في هذا الوقت ، تعيش وحيدة مع أطفالها الأربعة و كانت تعمل و تحمل الماء و تغسل الملابس لدى الأسر الغنية ، و كان زوجها يعطيها القليل من المال. لكن هذا الانفصال لم يسعدهما . و كان الأطفال يتحسرون على والدهم الذي كان بدوره يتحسر لأنه لم يعد يعيش مع أطفاله.

و هكذا تزوج من جديد زوجته الأولى و أخذها إلى البيت .

في هذه المرة ، أصبحت الزوجتان صديقتين جداً ، أما زوجهما الحداد فإنه كان قد كبر فسقط مريضاً.

الآن لم يعد يستطيع عمل الكثير و الزوجتان هما اللتان تعملان لتنفقا على البيت.

جمعة

« كان عمرها ستة عشر عاماً عندما زوجوها بمزارع صغير كان يعيش مع أمه و أخته .

كانت تحب زوجها كثيراً و هو أيضاً كان يحبها ، لكن الأم و الأخت أصبحتا غيورتين من علاقتهما الجميلة .فإذا اشترى الزوج لها شيئاً أرادت الأم و الأخت مثله تماماً .

و أنجبت جمعة بسرعة طفلاً فازدادت غيرة حماتها . فكانت ترهقها بالعمل و لم تكن تنقطع عن تأنيبها ، أمّا زوجها الذي لا يريد أن يُحزن أمه فقد طلقها . فعادت جمعة إلى بيتها و طفلها في أحضانها .

تزوج زوجها بأخرى و أنجبت له طفلة ؛ لكن ظلّت الحالة نفسها : الحماة تغار مرة أخرى إلى أن أنتجت طلاقاً آخر.

و تزوج ابنها للمرة الثالثة قائلاً :« هذه المرة انتهى كل شيء ، لن تجعليني أطلق زوجة أخرى » . و مع ذلك فإن هذه المرأة لم تفعل شيئاً يذكر و هو من أراد الطلاق .

و هكذا بعد أن رأت الأم ابنها وعرفت جيداً أنها كانت قاسية جداً ، و في الحقيقة فإن الزوجة الأولى (جمعة) كانت الأفضل .. قالت لابنها:

« لم تتزوج جمعة حتى الآن و هي تربي طفلها جيداً و مع كل ما حدث فإنها كانت امرأة طيبة . يجب عليك أن ترى إن كانت ما زالت تريدك » .

فأرسلوا أحد الأصهار ليتحدث مع أهل جمعة و أوضح لهم أن الحماة ندمت على سلوكها فيما مضى .

فكانت جمعة سعيدة جداً بعودتها إليه لأنها لا زالت تحب زوجها .

لكنها تظاهرت بالرفض قليلاً و بعد شهرين قبلت بأن تعود إليه. و منذ ذلك الوقت رأيتهم كلهم سعداء معاً ».

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الغيرة

تقية

« لقد كانت تقية فتاة صغيرة مخطوبة منذ وقت طويل لصبي في قريتها حين أتت إلى المستشفى للمعالجة قبل زواجها بفترة وجيزة ، اكتشفنا فيها بداية سل رئوي ونصحناها بأن تتعالج بسرعة ولكنها لم تتبع نصائحنا .

عادت بعد ستة أشهر ، متزوجة ومريضة بسلٍّ متقدم ، وعلى أنفها ضمادة كبيرة .

كان يصحبها أبوها وأمها وزوجها ، ولكنها لم ترد أن ترى زوجها أو تكلمه .

وقد أوضحت لنا أمها الحكاية بمجملها .

كانت تقية هي الطفلة الوحيدة ، وكانت مدللة إلى أبعد الحدود ، وبشوشة جداً ، أما زوجها فقد كان غيوراً جداً ، فما كان يقبل بأن تبقى تقية كثيراً لتضحك مع صديقاتها أثناء إحضار الماء ، وملّت تقية منه وعادت للعيش مع والديها .

لم يرد زوجها الطلاق ، وكان يتوسل إليها بأن تعود ، وفي أحد الأيام انتظرها على طريق النبع ، وقال لها :

« لا تخافي أريد فقط أن أقول لك بعض الكلام » .

و رفضت أن تكلمه ، فأخذه فجأة غضب شديد أمام رفضها ، فضمها بين ذراعيه وعضها في طرف أنفها حتى اقتلعه بين أسنانه ، وهرب قائلا :

« هكذا أصبحت قبيحة ولن تضحكي أبدا مع الآخرين ، لقد انتهيت » .

كانت تقية تصرخ وتبكي ، ووجهها مغطى بالدم ، فسمعتها امرأة كانت تعمل في حقل قريب واصطحبتها إلى بيتها .

أخذت صحتها تسوء ، وبدأت تضعف ، وبعد مضي بضعة أشهر ماتت في المستشفى .

بالنسبة للزوج فإنه ظل يغار عليها حتى بعد وفاتها ، وبدوره تشاجر مع أحدهم وقُتل بطلقة من بندقية».

مريم

« كان لدى مريم التهاب في عظام الساق ، وهي ترقد في المستشفى منذ عدة أسابيع ، لكنها وحيدة وحزينة جدا ، لأن زوجها لم يأت أبدا لزيارتها .

كانت مريم قد فقدت أمها وهي في الخامسة من عمرها ، فتزوج والدها بامرأة أصغر منه بكثير ، وكانت بالنسبة إليها كأختٍ كبيرة ، كانت مريم قد تزوجت منذ ثلاثة أشهر عندما مات والدها ، فأتت زوجة أبيها للعيش معهم .

« (يُمَّه) نجيبة – كانت تقول لي – هناك شيء يعذبني ! إني أجد زوجي يكون أسعد عندما تجلس أرملة أبي إلى جانبه من أن أجلس أنا » .

فأجبتها :« يا مريم أنت مخطئة أن تغاري من امرأة خدمتك كأمّك » . و لكن مع هذا فقد كانت مريم محقة ، أتى أخوها لزيارتها وقال لها بأنه منذ أن غادرت إلى المستشفى وزوجها وأرملة أبيها لا يتفارقان ، فإن عاد من العمل ولم يجدها في البيت يذهب ليبحث عنها في كل مكان ، وكانت القرية بكاملها تتحدث عن هذا الموضوع .

بعد خمسة عشر يوما أتى الأخ ليُعلم مريم بأنه في ذلك المساء سيتم زواج زوجها بأرملة أبيها .

لم تقدر مريم إلاّ على البكاء . مضى بعض الوقت ، وفي أحد الأيام سمعت مريم تناديني :

« أرجوك يا أمي نجيبة تعالي ساعديني على المشي إلى البيت ، فقد قيل لي إن زوجي مريض ».

في الحقيقة إنه كان قد قال بأنه يريد الذهاب لرؤية مريم في المستشفى ، لكن في الليلة السابقة لزيارته لها قامت الزوجة الجديدة الغيورة بوضع السم له في الطعام ، وعندما وصلنا كان قد انتهى أمره تقريبا ، ولم يعد يشعر بشيء، وكان يبدو عليه المعاناة .

« أترين – قالت لي مريم – إن الله يعاقبه ».

بالنسبة للزوجة الثانية ، فإنها قد ظنت أنه سيقبض عليها كمتهمة فقامت هي أيضا بتسميم نفسها فيما بعد .

هذا هو ما قيل على الأقل ، لكن بحسب الدين ، فقد كان هذا الزواج باطلاً، وقد أجرت العدالة مجراها .

تعافت مريم فيما بعد ، وأصبحت خادمة في المستشفى .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الانتحـــــار

زوجتا مهيوب

حكت لي فرانس هوس (نجيبة) عن زوجها:« زوجي مهيوب ، هو شاوش (صف ضابط) في الشرطة ، إنه رجل طيب ، ناعم ، مثقف ومتواضع، وكنّا سعداء . لكن تحولت السعادة بسرعة إلى حزن كبير ، لم يكن لدينا أطفال ، وهكذا كنت كجوز الهند الفارغ... كما يقال هنا ، لقد كان مهيوب يحبني كثيرا ، ولكني كنت أعلم أن الرجل لم يكن سعيداً بدون أطفال ، وهكذا بعد أربع سنوات من الانتظار قلت له بأن يتخذ زوجة أخرى ، لم نكن أغنياء، فتزوج من امرأة كانت قد تزوجت ثلاث مرات مسبقاً فلم تطلب مهراً كبيراً.

في البداية كنا نسكن معا ، لكن مع هذا فقد كان ذلك صعباً جداً بالنسبة لي، ففضلت مغادرة البيت للعمل في المستشفى ، وحينئذ طلقها مهيوب ، ولم نكن نعلم بأنها حامل في الشهر الثاني وأنجبت طفلة .

لكن الطفلة المسكينة لم تلق الرعاية الجيدة من أمها ، فلم تهتم أمها بنظافتها ولا بتغذيتها ، وكنت آخذها غالباً وأهتم بها جيداً تماماً ، لكن كان قد فات الأوان ، وماتت بين ذراعي .

وبعد مهيوب تزوجت هذه المرأة بثلاثة رجال ، بيد أنها لم تعد جميلة، لكن أمها كانت مشعوذة ، وإحدى بناتها كانت تمارس الشعوذة في الشارع بالحصى والصدف ، و قد وجدت كل هؤلاء الأزواج من أجل بناتها و ذلك

بعمل تعاويذ لهم ، وعندما طلق مهيوب زوجته سحرته أمها بالتأكيد لأنه بعد ذلك لم يعد بالنسبة لي إلا « أخ » فقط .

أما الزوجة الثانية لمهيوب فقد كان لديها نهاية مأساوية ، لقد كانت سارقة، و لعدة مرات كنت أرى مفاتيحي تخرج من جيبها ، وكان ينقص شيء من حقيبتي (كل امرأة في صنعاء تضع في حقيبتها كل أشيائها الشخصية وكنوزها الصغيرة) ، لكني لم أقل شيئا وذلك من أجل الطفل ، و طلقها مهيوب ، وفيما بعد حينما كانت حاملا من زوجها السابع أتهمت بسرقة مجوهرات إحدى الجارات وتم وضعها في السجن ، وبعد مرور بعض الوقت اعترفت وطلبت اصطحابها إلى منزلها لتريهم المكان الذي اخفت فيه المجوهرات ، وعندما وصلت إلى البيت توجهت إلى البئر ، وقالت : « إنها هنا » .

و جذبت بسرعة خمارها على وجهها وقذفت بنفسها إلى البئر ، وعندما أخرجوها كانت قد ماتت ، ولم يجدوا شيئا في البئر .

هل كانت بريئة ؟ لن يُعرف ذلك أبدا ، لأنهم لم يجدوا المجوهرات أبداً ، و يقال إنه كان بها مس من الجن .

لقد كانت تعرف أنهم يعتبرونها سارقة ، وربما أرادت أن تثأر من كل الذين اتهموها بأن تترك في نفوسهم شكاً وتوبيخاً بأنها بريئة . على العموم إنه هلاك في الدنيا و الآخرة لأنه بحسب الدين كل من يموت بهذه الطريقة يفقد الجنة إلى الأبد » .

الفَصْلُ الخَامِسُ

حــب ورحمــة

أمة الرحمن

روت لي فرانس هوس : « لقد كانت أمة الرحمن منذ ولادتها مشلولة القدمين ، كان والداها قد ماتا ، وكانت تعيش في المستشفى ، ولكن بالرغم من عاهتها فقد كان لديها من الإرادة ما جعلها تبقى دائما مرحة ، فكان الجميع يحبها ويحاولون مساعدتها .

وأدخلنا في نفس الغرفة امرأة مريضة جدا ، كان زوجها يأتي غالبا لرؤيتها ، وكان يشتري أيضا بعض الأشياء لأمة الرحمن ، وحين ماتت زوجته استمر بالمجيء لرؤيتها .

وقال لها في أحد الأيام :

« كما ترين أنا وحيد الآن فلا زوجة ولا ولد ، وأنت أيضا وحيدة ، أنا أكن لك المحبة ، فلماذا لا نتزوج ؟ سآخذك . لدي بيت صغير . وستعملين كل ما تستطيعين به ، وسأقوم أنا بعمل الباقي » .

وافقت أمة الرحمن ، فأخذها بين ذراعيه من المستشفى وتزوجها .

وبعد بضعة اشهر عادت لزيارتنا في المستشفى يحملها زوجها بين ذراعيه ، لقد حولها زوجها إلى امرأة مغناج وأنيقة ، وكان يريد أن يرينا كم هم سعداء . وهو مستمر في هذا منذ عدة سنوات .حتى وإن بدأت الحياة تكشر عن أنيابها فلا بد أن لا نفقد الأمل » .

فاطمة

« لم يعد لدى فاطمة أب حين ماتت أمها في المستشفى بعد ولادتها ، وكان توجد عجوز اسمها فاطمة تعمل في المستشفى كخادمة ، وكانت قد وعدت الأم التي تُحتَضرْ بأن تعتني بطفلتها .

وهكذا فإن خادمة فقيرة في المستشفى قد ربت و تبنّت فاطمة الصغيرة ، و كانت فاطمة الصغيرة تنادي فاطمة العجوز « جدتي » .

كانت فاطمة صغيرة جدا حين بدأت تساعد جدتها في الاهتمام بالمرضى.

إلى أن أتى نصيبها : رجل لطيف كان لديه مهنة جيدة ، لقد كان نجاراً .

حتى ذلك الحين ومنذ أكثر من عشرين سنة ؛ كان يعيش مع أمه الأرملة وأخته الطاعنة في السن .

ولم يُرضِ الأم ولا الأخت رؤية امرأة شابة تأتي للعيش في نفس البيت .

فأحياناً كان الزوج يريد البقاء مع زوجته ، وحين كانوا يسمعونه يضحك، كانت الأم تأتي بسرعة لتزعجه .

وإن أعطى الزوج لزوجته الجميلة والشابة شيئاً ما ، فإن الأم والأخت تريدان أيضا مثلها ، ليست الحياة سعيدة ، لكن فاطمة التي أصبح لديها طفل التزمت الصبر أربع سنوات .

كانت متعبة جدا ، وغالبا ما كانت تعود إلى جدتها تبكي ، وفي أحد الأيام قالت لها جدتها :

« عودي للعيش معي ما دام الوضع بهذا الشكل ».

وهكذا طُلقت فاطمة ، وبقي الطفل مع والده ، وكانوا يأتون بالطفل إليها من وقت لآخر ، وعادت للعمل في المستشفى من جديد ، ثم أتى نصيبها من جديد ، لقد كان عسكرياً في الفرقة الموسيقية ، لم يكن غنياً ، ولم تكن العجوز فاطمة راضية جداً ، مع ذلك فقد تزوجا أخيراً . لقد كان رجلاً كريماً . وكانت فاطمة العجوز سعيدة أنها رأت « حفيدتها » سعيدة مع هذا الرجل .

كان لدى العجوز فاطمة حلم حياتها وهو الذهاب إلى مكة وماتت أخيراً ولم تستطع أن توفر ما يكفي من المال للحج ، وبعد وفاتها بفترة ، حصل الزوج على ميراث صغير ، بعض الأراضي وبيت في القرية ، وقالت لي زوجته فاطمة في أحد الأيام :

« كم هو طيب يا أمي نجيبة ! لقد باع بيته والأراضي التي حصل عليها من الميراث ليعطيني المال ، إنني أعترف بالجميل الذي صنعته لي جدتي التي ربتني مع أنني لا أمت إليها بصلة ، الآن وبفضل زوجي أستطيع أن أحُج باسمها » .

خيرية

وصلت خيرية ، من (بني مطر)، بعد أن طردها الجفاف مع زوج يكبرها بكثير .

« في القرية – قالت لنا – نحن نزرع قطعة أرض كبيرة فإذا جنينا خمسين قدحاً من الحبوب ، فإن المالك يعطينا عشرة أقداح وإذا كان المحصول أفضل فإنه يعطينا الثلث ، ويتعين أن يكون المحصول ممتازاً كي يعطينا النصف ، ومن نصيبنا يجب علينا تجهيز و إعداد البذور ، فكيف الخروج من هذا البؤس مع هذه الظروف ؟ »

إنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى المدينة ، فكانت تعمل وتحمل الماء وتغسل الملابس في البيوت ، وما تبقى من الوقت لم تكن تترك زوجها العجوز يقوم بأي شيء .

« لماذا أخرج ؟ ليس لدي الرغبة بتركه ، فقد كان دائماً طيباً معي ، وأنا أحبه، وهكذا فإني حين أكمل عملي أفضل البقاء بقربه ».

[سردت (نجيبة) هذه القصة] :

شفقة

كان هناك رجل بخيل ، مع كل صباح كان يعطي زوجته ما يجب من أجل مصروف البيت ، ثم يغادر إلى العمل ، بعد أن يغلق كل شيء بالمفاتيح .

في أحد الأيام ، أتت كلبة ضالة لتلد صغارها بالقرب من البيت ، وشعرت الزوجة بالشفقة نحو الكلبة وصغارها ، وأثناء عمل الخبز أخذت بعض الطحين لتصنع منها رغيفاً صغيراً من أجل الكلبة ، وأخذت الرغيف إلى الكلبة مع بعض الماء ، فقد كان هذا الحيوان يشعر بالجوع والعطش ، وفي الظهر حين عاد الزوج قال لها :« هه ، يبدو لي أن الخبز قليل اليوم ».

ردت الزوجة : « أوه لا ، الخبز كالمعتاد ؛ لقد عملت بمقدار الكمية التي أعطيتني من الطحين » .

في المساء ذهبا للنوم ، وحلم الزوج حلما شغل باله ، لقد رأى نفسه في خطر كبير ، لقد كان محاطاً بالنيران ، وكان هناك كلب ضخم يقفز حوله كي يحميه . كان الرجل مؤمناً جداً ، وتركه الحلم يتأمل كثيرا فطلب من زوجته : « حدثيني بكل ما فعلتيه بالأمس ؟

- كما المعتاد ترتيب البيت .. الأكل .. و قمت بترقيع بعض ثيابك .

- قولي لي كل شيء ، وأعدك ألا أنهرك ؟ »

وهكذا قالت له : « لقد كان هناك كلب بائس جائع بالقرب من بيتنا ، فأخذت بعض الطحين أثناء إعداد الخبز ، وصنعت رغيفاً صغيراً من أجله ».

وهكذا فكر الزوج ثم قال لها :

« بلا شك أنه إن كان ثمة من ساعدني في حلمي فهو بفضلك ، فما فعلتيه من خير قد ساعدني أنا وبما أنني أنا الذي يعطي كل شيء إلى المنزل فخذي المفاتيح ! إنها مفاتيح الصناديق والخزائن ، ولن أسألك أبداً ماذا فعلت بهذا أو بذاك ، والآن فهمت أنه يجب على الإنسان أن يكون طيباً ».

إنها أحدى القصص ، وغالبا ما نسمع قصصاً مثلها .

يوجد أيضا حكاية شهيرة جداً ، كان الناس في الماضي القريب يذهبون إلى الحج في مكة سيراً على الأقدام ، و في إحدى المرات كاد العطش أن يذهب بالناس في إحدى القوافل ، فنزل أحد الأشخاص إلى بئرٍ على الطريق ، وأخرج منها الماء فشرب و شربت القافلة بأكملها .

ثم وصل إلى المكان كلب بائس ضعيف جدا ، و قد انكب على لعق قطرات الماء من التراب ، فقال الرجل لنفسه : « لا أستطيع أن أترك هذا

الحيوان يموت من العطش بعد أن شربنا جميعاً » ، فنزل إلى البئر مرة أخرى وملأ نعله بالماء وأعطى الكلب ليشرب .

ومات هذا الرجل قبل أن يصلوا إلى مكة ، ولكن عائلته متأكدة أن شفقته بالحيوان قد كُتبت له عند الله ، وأنه وإن لم يدخل مكة ويحج فإنه كما لو أنه قد دخل مكة وحج ، وهو يعتبر " حاج " بحسب اعتقاد والديه و أصدقائه .

لدى كريمة ، من مدينة (حجة) حظ وفير : لقد أدت فريضة الحج إلى مكة بدون مال !

فهي الآن طاعنة في السن ، إذ تبلغ من العمر حوالي مائة سنة ، كما قالت لي ، ولكن من يدري ؟

لقد تزوجت و هي صغيرة جدا قبل بلوغها من رجل في منتصف العمر (حوالي ثلاثون سنة) ، وبعد اثنتي عشرة سنة مات زوجها ، وبقيت أرملة بعده خمس سنوات ، ثم تزوجت ، ولكن مات زوجها بعد فترة وجيزة.

منذ ذلك الحين أصبحت عمياء ، وبقي لها ولدان ، وقد قررت قبل خمس عشرة سنة أن تحج بصحبة أحد أولادها. غادر الاثنان نحو الشمال إلى مكة سيراً على الأقدام ، كان لدى كل منهما عشرون ريالا (ماريا تيريزا) وبعد يومين من المشي قابلوا شاحنة أخذتهم – شفقة- حتى مكة ، وقد مكثوا في مكة ثلاثة أشهر عاشوا فيها على الصدقة .

ثم قام بعض المحسنين بدفع أجر العودة على الباخرة من مدينة جدة إلى الحديدة ، والمحسنون هم من يجب عليهم أن يشكروا الأم وابنها وليس العكس، لأن الأم والولد هما من هيئ الفرصة للمحسن بأن يكون محسناً وبأن يربح الجنة ، وهكذا فإن أي شخص يسمح للآخر بأن يكون محسناً عليه،

يكون هو صاحب الجميل و يجب أن يكون المحسن شاكراً لجميل الفقير لأنه هو من أعطاه هذه الفرصة .

وهذا هو السبب في إنه حين نعطي المسلمين شيئاً فنادراً ما يقولون شكرا [1] [!!]

---

[1] - ربما خلطت نجيبة بين قيم الإيمان المسيحي وقيم الإيمان الإسلامي .

الفَصْلُ السَّادِسُ

أولئك اللاتي رفضن الرجال

أو سخرن منهم

حمودة

لقد طرد الجفاف حمودة من قريتها في (بني حِشَيْش) ، قالت لنا : « لقد أغلقنا منزلنا هناك ولم يعد هناك أحد .. لا بشر و لا بقر لاشيء و إلى أن ينزل الغيث سيظل المنزل خاويا كالصحراء » .

و هي ترفض الزواج رغم إلحاح شقيقها عليها ، كما كان قدرها أن تصبح يتيمة و هي تكسب قوتها كما ترغب ؛ إما بجني محصول البرسيم في الحقول المحيطة بصنعاء أو بحمل الماء إلى المنازل في المدينة .

قالت لنا : « ما الذي تمتاز به النساء المتزوجات أكثر مني ؟ إنهن يعملن حتى الموت من أجل أزواجهن وأطفالهن ، أما بالنسبة لي فأنا لن أعمل إلا من أجل نفسي و هذا يكفيني » .

نبات

لم تكن نبات تريد الزواج . مع هذا فقد نجح والدها بتزويجها ولكنها تركت زوجها وحصلت على الطلاق ، وبعد سنتين زوجوها مرة أخرى رغماً عنها ، و لكن في هذه المرة برجل عجوز كان لديه زوجة أخرى فاتنة ، وكانت نبات متفاهمة جداً مع ضرتها أكثر بكثير من زوجها ، لدرجة أن طلقها زوجها بسبب غيرته من تفاهمهما ، ومن ذلك الحين حصلت نبات على حريتها ، لتعمل في المستشفى ، حيث تعيش أخيراً بهدوء مع خادمة أخرى .

زهرة

لا تدري زهرة بعمرها ، فهي أرملة سعيدة في حياتها لأنها ثرية ، كانت قد تزوجت قبل بلوغها بسنة لتتجب فيما بعد ثمانية أطفال عاش منهم أربعة. مات زوجها قبل خمس عشرة سنة ، وكان قد تزوج عليها بزوجتين ، ولكنهما لم تنجبا فطلقهما على التوالي .

بقيت زهرة وحيدة لمدة أربع سنوات ، بعدها تزوجت بأحد العاملين في مزرعتها - (ربما لكي لا تدفع له أجرته بعد الآن) - لأنها كانت قد أخذت على عاتقها الاهتمام بالمزرعة ، وكان الزوج يعمل مسبقاً بشكل جيد ، ولكن منذ زواجه لم يعد يعمل أبداً ، بل كان يريد أن تكتب له جميع الأراضي باسمه، و مما لا شك فيه أنه كان يريد بيعها لمصلحته الشخصية .

و لذلك طردته ، فغادر منذ أربع سنوات بدون أن يعلمها بشيء ، ولا تدري زهرة ما آل إليه أمره . هي لم تطلق ، ولكن زوجها تركها بهدوء، ولتكمل حياتها حرة وتعيش كما يحلو لها قريبة من أطفالها الأربعة .

السجينة

أرسلوا إلينا من سجن النساء مريضة ترزح بين أغلالها المحكمة على قدميها ، وقد أمرونا بالسهر بجانبها ، وأن نظل قريبين جداً منها لأنها

(شيطانة) ، نعم ، فبثلاثة أسماء مختلفة وبدون طلاق ، كانت قد وجدت طريقة مكنتها من الزواج بثلاثة رجال في نفس الوقت ، وقد اتخذها كل زوج منهم زوجته الوحيدة ، وعند غيابها كانت تقول لهم إنها ذهبت لرؤية أهلها الذين كانوا بلا شك يساعدونها في كذبها . مع أنها لم تكن جميلة إلا أنها كانت ممثلة بارعة .

كانت تزحف عندنا في المستشفى حتى الحمام بحثاً عن الدواء وفي الحقيقة كانت تزحف للبحث عن أشخاص يساعدونها على الهرب ، و فعلاً استطاعت في إحدى الليالي أن تهرب من على السور الطيني للمستشفى ، وأقدامها لا زالت مقيدة ، ولم تترك خلفها إلا القليل من التراب الذي سقط من السور بفعل احتكاك القيود عليه .

لكنهم تمكنوا من العثور عليها بعد بضعة أيام فقد ذهبت لرؤية أمها المريضة ، لتعود مرة أخرى إلى السجن ، ولا ندري ما الذي جرى لها فيما بعد » .

الفَصْلُ السَّابِعُ

حالات حملٍ غريبة

أعلموني أن مريضة قد أتت إلى قسمي ، أنها فتاة شابة تصحبها أمها .

لقد كانت الفتاة ساذجة جداً ، بالكاد تستطيع الكلام ، ولم تكن لتقوى إلاّ على رعي الأغنام . كانت بطنها منتفخة ، فسألتُ أمها : « منذ متى وهي حامل ؟ »

« حامل !؟ – صرخت الأم – هل أنت مجنونة ؟ ابنتي ليست متزوجة ، وبالنسبة لما في بطنها فهي أفعى » .

لم أرد مناقشتها فذهبت للبحث عن الدكتور الذي قال للأم ساخراً : « أكيد أنها أفعى ، أفعى غريبة سوف تصرخ عما قريب وي ي ، وي ي » .

و وضعت مولودها بعد ثمانية أيام ، و كان صبياً ضخماً ، فعرفنا أنها قد تعرضت لحادثة اغتصاب في الجبل ، و ربما بدون أن تعرف ما حدث لها وما عواقبه ، لكن لقد كان ذلك حادثة خطيرة ، فتاة بدون زوج ولديها طفل ! ربما قد يزج بها هذا الحادث إلى السجن مع أمها .

قمنا بالترتيب للتستر على القضية ، ليتبنى الطفل رجل بدون أطفال ، وهكذا ، تستطيع الأم مع ابنتها العودة إلى القرية .

و لقد نجحت النساء المسلمات [1] في إقناع الرجال أن الطفل قد ينام في بطن أمه وأن الحمل قد يستمر ثلاث سنوات ، وهذا مريح عندما يغادر الزوج في سفر طويل ... لكن قد تكون بعض الفتيات أكثر ذكاء ، أو أن يكون بعض الرجال أكثر سذاجة مما يجب ، وهذه حكاية كانوا قد حكوها لي :

لاحظ أحد الآباء ذات يوم أن ابنته حامل ، و قد غضب حين عرف ، ولكنه في ذات الوقت أبدى اندهاشه لأنها لم تخرج أبداً من البيت بدون أمها ، قالت له :

« حسناً، سأخبرك الحقيقة لقد كنت مدعوة في إحدى المناسبات ، وقد جلست بالقرب من امرأة حامل فانتقلت العدوى إليّ ، وهكذا أصبحت حاملاً .

- ما الذي تقولينه لي ؟ مستحيل حدوث هذا !
- اسمعني يا أبي ، سترى بنفسك عندما تجتمع مع الرجال أنه إذا تثاءب أحدهم فإن الجميع يتثاءبون مثله ، وقد حدث بالضبط مثل هذا معي » .

بعد ذلك بأيام اجتمع الأب مع بعض الأصدقاء عند أحد الجيران ، و أثناء الجلسة تثاءب أحدهم ثم تثاءب الجميع ، حتى هو ، لذلك أخبرهم :

---

[1] - نشهد هنا تحولاً في لغة (نجيبة) لا تتطابق وقناعتها باعتناق الإسلام ، والأغرب من ذلك أن نجدها في ـ الصفحة التالية ـ مقتنعة بالطرفة السابقة ، التي حكتها .

« حقا ما قالت ابنتي ، حين قالت لي إن من يتثاءب يجعل الجميع يتثاءبون ، لقد كانت ابنتي جالسة بالقرب من امرأة حامل وهي الآن حامل » . لم يرد الآخرون التفوّه بشيء ، ولكني لا أعرف إن كانوا صدقوه .

أيضا شيء آخر ؛ هنا تقول النساء إنه بعد الولادة ، إن كان الطفل التالي سيأتي سريعاً فإن المرأة تحس بحركته في بطنها بعد ثلاثة أيام من ولادة السابق ، أنا نفسي أعرف أن امرأة جادة جداً كانت قد ترملت أثناء حملها، وبينما هي راقدة على الفراش بعد الولادة أخبرت الجميع بأنها تحس الولد التالي يتحرك وهكذا تبعاً لذلك أنجبت ثلاثة أطفال من زوجها المتوفى ! حقا لا يوجد شيء يقولونه حول سلوكها ، فهي كانت (ظاهرياً) امرأة طاهرة ، ولم يتفوه أحد بشيء .

الفَصْلُ الثَّامِنُ

عندما يقترب الموت

أمينة

ينتشر السل بكثرة بين النساء اليمنيات عن طريق العدوى ، وقد عملت كثيراً على مكافحة هذا المرض ، إذ لم يكن العقار المضاد للمرض موجوداً آنذاك ، ولدي الكثير من الحكايات الحزينة التي مرت عليَّ ...

لم أنس أمينة ؛ امرأة شابة في الثلاثينات من عمرها ، كانت مريضة منذ ثلاث سنوات ، جميلة ، مليئة بالحياة ، وقد كان لديها الرغبة بثوبٍ جديد ، وكانت ستتحسن لولا أنها علمت في أحد الأيام أن زوجها الذي سأم الانتظار قد تزوج لتوه بابنة عمه ، و قد انتهى لديها بزواجه كل شيء ، فقد كانت تردد عليّ بدون انقطاع : « يا أمي نجيبه ! لا، لن أتعافى أبدا . سأموت ، وسيكون هذا أفضل بالنسبة للجميع » .

فوبختها ، و قلت لها بأن تترك مثل هذه الأفكار ، لكن كلامي لم يهدئ من روعها .

في أحد الأيام كان الطبيب يقوم بإخراج القيح من مريضة في نفس الغرفة، إذ بأمينة تقول لي بأن أظل بالقرب منها بينما كان الطبيب يقوم بزيارته للمرضى .

في ذلك اليوم كانت أمينة مضطربة جداً ، وكانت تطوي الغرفة ذهاباً وإياباً و بدون انقطاع من سريرها نحوي ثم إلى سريرها مرة أخرى مرددةً : « يا أمي نجيبة ! اقتربي مني أحس بأني سوف أموت » . لكني لم أزعج

نفسي بشأنها ، لم تكن مريضة أكثر من المعتاد ولا أكثر تعباً ، وهي كما هي تذهب وتأتي من سرير إلى آخر ، وهي تردد : « يا أمي نجيبة ! سوف أموت».

وهكذا مللت منها ، وبالتأكيد وبدون أن أفكر في ما أقول قلت لها :

« حسنا موتي إذاً و دعيني أكمل عملي » .

لم تجبني قط ، استدارت نحو سريرها ، وأخفت وجهها ثم تمددت على الأرض وأغمضت عينيها ، وأطلقت تنهيدة صغيرة وماتت فجأة .

سقطت ذراعي و تسمرت مكاني كما لو أنني تمثال من الحجر .

و ما زلت أسمع تلك التنهيدة .

لطيفة

لطيفة أيضا مصابة بالسل في كلتا الرئتين ، وقد رأيت ذلك على الأشعة، وأخبرناها بأنها ستتعافى ، ولكنها لم تصدق ما كنا نقوله لها .

في أحد الأيام قالت لي : « لو أنك يا أمي نجيبة تعيريني ثوبك الجميل ، أعتقد بأنني سوف أتعافى ».

فقلت لها :

« إن كان هذا سيسعدكِ فاني سوف أحضره غداً » .

فابتسمت ابتسامة حزينة ، وردّت عليّ :

« لا ، لا أظن ذلك ، أنا أعرف جيداً أنه لن يكون هناك ثوب آخر لي غير الكفن ، وهذا أفضل سأكون أكثر سعادة في الجنة ، ليس لديّ إلا أمي ، فهي لن تتألم كثيراً لأن لديها أطفالاً آخرين .

- لكن يا لطيفة لماذا تقلقين نفسك بهذه الأفكار اليوم ؟
- لا يا أمي نجيبة أحس جيداً أنني قد بلغت النهاية ، لكن إذا كنت تريدين أن تسعديني سعادة بالغة فابقي بالقرب مني هذا المساء لتحدثيني قليلاً » .

في ذلك المساء بعد أن انتهى يوم عملي ، أتيت للجلوس بالقرب منها فقالت لي من جديد : « إنها الحقيقة ، أنا سعيدة لأنني سأموت قريباً ، ولن أترك شيئاً خلفي ، فقد مات أبي وليس لدي أخوة من أبي فأخوتي هم لأمي من أبٍ آخر ، لقد كان زوج أمي مع ذلك طيباً معي ، ولكنني منذ طفولتي وأنا مريضة ولم أستطع أن أعمل كما كان متوجباً عليّ . لذلك لا يشق عليّ أن أموت لكن الموت لا يأتي بسرعة ثم إنه لم يأت أحد لزيارتي » .

وقالت لي أيضا :« مع ذلك لدي الرغبة في شيئين ؛ أرغب بشدة أن تحضري لي قطفا من العنب فقد حان وقته ، فليس لدي نقود ، وعندما أموت يا أمي نجيبة أرغب أيضا بشدة أن يضعوا لي كفناً جديداً ، وأن يجهزوا لي جنازة كما في العائلات الأخرى » .

وعدتها بأن يتحقق لها ما تريد ، و في اليوم التالي قمنا بجمع تبرعات صغيرة حتى بلغت ما يكفي لشراء الكفن ،و أيضاً أعطتها إحدى مريضات الغرفةعنقوداً كبيرا من العنب كانوا قد أحضروه لها ، أكلته كله ، وقالت لنا: « شكرا ، الآن أستطيع أن أموت » .

في نفس اليوم أعلموني أن لطيفة تطلبني ، و كان وجهها قد تغير كلياً . أخذت يدي وقالت : « ابقي الآن بقربي ، لقد دنت ساعة الموت وأنا خائفة ».

ثم أغمضت عينيها وتنهدت مرتين أو ثلاث ثم ماتت » .

عتيقة (3)

« لقد كان ذلك في فترة اضطرابات ما بعد الثورة عندما كان الملكيون يحاصرون صنعاء (20) . في هذه الفترة كانت تحدث أمور جميلة من ناحية و قبيحة من ناحية أخرى وكما في كل مكان لابد من ضريبة لقيام الثورة .

وهكذا فإننا كنا نتلقى بعض قذائف المدافع في شتى أنحاء المدينة ولم نكن نعلم أبداً هل ستسقط علينا هذه القذائف كما لم نكن ندري متى ستسقط علينا إن سقطت ؟ وفي هذه الفترة أدخلت عتيقة إلى المستشفى في قسمي و كان فيها بداية سل ، وكانت قد تركت في منزلها زوجها و أمها و أطفالها الأربعة . بعد شهرين كانت قد بدأت تتحسن وكانت تطلب بدون انقطاع الخروج من المستشفى . كانت تقول للدكتور :« الحياة صعبة في هذه الفترة وأريد أن أكون بالقرب من أطفالي ، حتى وإن كنت سأموت فإني أريد أن أبقى معهم ».

قالت لي في أحد الأيام :

« أمي نجيبة ! لم اعد أستطيع البقاء ولا أدري لماذا يجب على أن أخرج انتهى الموضوع لم أعد أستطيع البقاء أكثر » .

كنت أريد أن تبقي عتيقة أيضاً بضعة أيام لكن لا فائدة من إلحاحنا عليها. فأعطيناها إذنا لفترة محددة جداً للخروج ؛ فتركت كل أغراضها في المستشفى وغادرت .

مر يومان وثلاثة ولم تعد ، ثم أتى زوجها حزيناً جداً ، وأوضح لنا بأنه لم تكن عتيقة بعيدة عن مسكنها حين سقطت قذيفة ، من مدفعية ،على الطريق وماتت في نفس اللحظة.

لقد كانت تقول لي : « أنا حقاً لا أفهم ، يوجد شيء يدفعني ، أنا متأكدة أن أطفالي بخير لدى أمي ولكن يجب أن أخرج مهما يكن » . بالنسبة لي ! أعتقد أن ساعتها قد حانت! و لو أنيّ قد منعتها من الخروج فمن يعرف ؟ لربما قد يحدث لها شيء ما ! إنه القدر !!! »

الفَصْلُ التَّاسِعُ

العـــين الخبيثـــة

غالباً ما كان يُحكى لي حكايات عن العين التي تصيب ولم أكن أصدق إلا بعد أن حصل لي هذا الموقف :

في أحد الأيام ، كان لدي الكثير من العمل وكنت أحث خطى مشيتي داخل المستشفى من غرفة لأخرى لضرب الحقن . قابلت امرأتين ، لا شك بأنهما زائرتان . سمعت بوضوح إحداهن تقول للأخرى : « إنها نجيبة الفرنسية ، إنها حقاً لا تتعب ! انظري إليها وهي تجري ! »

عدت إلى إحدى غرف التضميد ، وضعت الحقن وجلست لأرتاح قليلاً على حافة النافذة . ثم أتت إحداهن للبحث عني من أجل إحدى المريضات لقد كانت حالة مستعجلة ولكن ما الذي حدث لي ؟ كان من المستحيل أن أنهض أو أن أتحرك ! كنت أحسُّ بأنني صخرة أو قطعة خشب مسمّرة إلى النافذة .

قالت لي الخادمة : « حسناً ، انهضي! إنهم ينتظرونك » .

قلت لها : « لا أستطيع رغم أنني أبذل قصارى جُهدي، إلا أنني لا أستطيع الحركة » .

أتت المريضات بسرعة لرؤيتي و سألتني إحداهن :

« ألم تقابلي أحداً في الرواق ؟

- بلى ... امرأتين نظرتا إليّ و أنا امشي بسرعة .

- بالتأكيد هذا هو السبب » .

عادت العجوز فاطمة مع قطع كبيرة من الملح . أخذت كل واحدة من النساء سبع قطع في يدها ومررتها على رأسي ، على ظهري ، على قدمَيّ وهن يرتلن بأذكار دينية ثم يذهبن ليقذفن نصف الملح في الماء والنصف الأخر في النار ، وهكذا خمس مرات، في المرة الخامسة أحسست فجأة بتحرر جسدي و استطعت النهوض كما لو أنه لم يصبني شيء .

وقد حدث لي نفس الشيء مرة أخرى ، كان ذلك اليوم يوم عيد ؛ ولكن مع هذا أتيت إلى المستشفى لكي اطمئن و أسلم على مرضاي و حتى أعطى أولئك الأطفال الذين لا يتلقون شيئاً في العيد بعض الحلويات . و كنت قد لبست ثوباً جميلاً أخضراً وحين وصلت إلى باب المستشفى رأيت هناك بائعة ورود فاشتريت باقة صغيرة من براعم الورود و وضعتها لي البائعة على شعري.

و دخلت لرؤية مرضاي وكنت في الغرفة الثالثة حين سمعت إحدى الزائرات تقول :

« إذاً هذه هي نجيبه الفرنسية ؟ لكن كم عمرها ؟ . انظروا إليها كيف تلبس ! مازالت تلبس ثياباً رائعة كي تُرضي الرجال ».

مع أن هذا كان آخر اهتماماتي إلاّ أني أكملت زياراتي و خرجت من هذه الغرفة للذهاب إلى الغرفة التالية عندما أحسست فجأة بأن نصفي الأيمن قد

تخدر وشُلَّ من قمة رأسي حتى أخمص قدمي . لم أعد أستطيع تحريك قدمي. فسألتني الخادمة التي كانت ترافقني إن كنت مريضة ؛ لكن حتى فمي كان أيضاً قد تخدر و لم استطع الكلام إلا بصعوبة بالغة و استطعت أخيراً أن أوضح لها ما حدث لي .

فأخَذَتْ بسرعة باقة الورد ورمت بها في الأرض، و في بضع دقائق عاد كل شيء إلى ما كان عليه .

قد يبتسم من يقرأ هذا .. ولكن مع ذلك فإني اقسم أنه قد حدث ! وأنه حقيقي! وما زلت أحاول فهم ما حدث . وبالتأكيد يوجد خلف هذا الموضوع شيء ما! ولكن ما هو ؟

« في يوم جمعة قبل قيام الثورة ذهبت للتنزه في الريف المجاور لصنعاء. وجلست لأرتاح في إحدى القرى . فطلبتْ منّي إحدى النساء أن أدخل بيتها ؛ وفي إحدى زوايا البيت كانت هناك طفلة جميلة جداً، لكنها كانت تنظر حولها بشكل غير مألوف يلفت الانتباه إليها.

وهكذا أوضحت لي الأم حكاية ابنتها . إنها هكذا مريضة ومعزولة منذ سنتين . قبل ذلك كانت طفلة فاتنة و جميلة وضحوكة، و في أحد الأيام كانت تلعب في الطريق أمام المنزل . ومر بعض الناس وتوقفوا لمشاهدتها ثم غادروا .

قالت الأم : « نظرت إلى ابنتي وهي تُمرر نظرها في كل مكان كما لو أنها كانت تبحث عن شيء، وقالت لي فجأة : «

- انظري يا أمي كم هو سريع .
- ما هو ؟
- ماذا ؟ ألا ترين الأرنب الأخضر الجميل ؟ »

اعتقدت أنها كانت قد بقيت تحت الشمس لفترة طويلة . فقلت « نعم » كي لا أعارضها . ثم رأيتها وهي تَضْمُر من يوم لآخر وتبقى ساعات بدون كلام وقد تسمرت عيناها . كان يتوجب علينا إجبارها على الأكل ، وقد بذلنا أنا ووالدها كل ما نستطيع فعله . وقد (فتحنا الكتاب) عدة مرات لمعرفة السبب

و لمعرفة الدواء . و أخبرونا أن هناك من شاهدها بعين خبيثة وأن هذا هو سبب المرض . و لكن العلاج الذي أعطونا لم ينفعها أبداً وكانت دائماً تبدو وكأنها تشاهد شيئاً ما ولكننا لم نكن نشاهد شيئاً ».

و أنا كذلك ما كنت أستطيع أن أعمل لها شيئاً ، فعدت إلى صنعاء وبعد خمسة عشر يوماً عدت لمعرفة أخبارها .

لقد كانت الأم حزينة جداً . قالت لي : « لقد مرضت (وردة) أكثر فأكثر بعد زيارتك. كانت تريد الخروج من البيت . كانت تقول لي دائماً : « انظري يا أمي كم هو جميل هذا الأرنب الأخضر! كم هو براق !»

ولم تعد تريد الأكل . و مع ذلك ففي ذلك المساء جعلتها تأكل بيضة وتشرب كأساً من الحليب ، و جعلتها تنام . في منتصف الليل سمعت صرخة كبيرة : لقد كانت ابنتي واقفة على حافة النافذة صارخة بأنها تريد التقاط الأرنب ؛ ثم قذفت بنفسها خارجاً . وعندما وصلنا إليها كانت جثة هامدة على الأرض » .

لو أني كنت قد اصطحبتها إلى المستشفى في زيارتي الأولى ! أكنت أستطيع معالجتها ؟ لا أعتقد . فهذه الأشياء تتخطانا ، ولن نتوصل إلى فهم ذلك . مع ذلك فإن هذه الأحداث حقيقية ولا زالت تحدث بكثرة في الريف . ويقال هنا في اليمن إن (نصف الأمراض على الأرض تأتي من العين).

و يقال أيضاً إن العين الخبيثة تستطيع أن تكسر الحجر . والكثيرون يصدقون ذلك .

حينما يمرض طفل فإن هذا لا يمنع أن تهتم أسرته بعلاجه إن كانوا يستطيعون شراء الدواء لكن هنا يقال إن الطفل قد أصيب بـ (عين الشيطان) فنصطحبه إلى المقبرة، وعلى أحد القبور نغسله بأكمله بالماء الساخن ثم نلبسه ثياباً أخرى يعطيها لنا الجيران ، ثم ندفن الملابس القديمة . وكل هذا من أجل خداع الشيطان . وقد ينجح هذا أحياناً !

أعرف امرأة كانت قد فقدت أطفالها الاثني عشر في سنٍ مبكرة و عند ولادة الطفل الثالث عشر نفذت نصيحة قديمة : بعد الولادة مباشرة تضع الأم الطفل في أحضان إحدى الجارات وتقول لها : « أتريدين أن تبيعي لي هذا الطفل ؟ ... نعم » . ثم تعطيها بعض المال وكأنها قد اشترت طفلها وكأنه حقاً ليس منها . وقد عاش هذا بالذات !.

وقد شاهدت العديد من الحالات المشابهة ، إحدى هذه الحالات امرأة فقدت كل أطفالها فنذرت أن الطفل الذي سيأتي لن يكون ابنها وأن المرأة التي ستأخذه ستصبح أمه . وقد وفت المرأة بالنذر ولكنها لم تنس طفلها وكانت تهتم به وترسل له بعض الهدايا .. وهكذا عاش الطفل .

قد يساعد التطيّر على الحياة !،! وفي الحقيقة ليس هذا سيئاً » .

الفصل العاشر

مرض الشيطان

(نورا)

في تلك الليلة ، أتوا ليعلموني و أنا في غرفتي أن نورا قد تلبسها شيطان ولم أكن أصدق قصص (المسَّ). و قد ذهب مباشرة إلى خاطري أنه ربما قد تكون أزمة عصبية وقلت لهم : « حسناً لنذهب لرؤية هذا الشيطان ، سوف أقبض عليه وأحبسه في برميل » .

كانت نورا قد بلغت حوالي الثلاثين عاماً و لم تتزوج بعد لأنها لم تكن تتحمل اقتراب رجل منها . كانت نظيفة جداً ، فلم يعرف عنها أنها قد لبست ثوباً متسخاً . وكنا نعاني أثناء علاجها لأنها وهي مريضة بالسل كانت لا تتحمل الحقن .

عندما دخَلَتْ إلى الصالة كانت رجلها اليمنى متصلبة كلياً ومرتفعة بارتفاع ثلاثين سنتيمتراً عن السرير وكان وجهها عابساً .

طلبت من الخادمات ومن المريضات الأخريات مساعدتي على إنزال قدمها . لقد كنا سبع نساء وقد حاولنا إنزال قدمها إلى السرير ، لكن ذلك كان مستحيلاً ! و في هذه اللحظة ، سمعت صوتاً كصوت طفلٍ كان يبدو عليه أنه يأتي من بعيد، مع ذلك فقد كان ذلك هو صوت المريضة التي كانت تتكلم بصوت غير صوتها المعتاد كانت تقول: « الله الله الله !» ثم سمعت بوضوح ثلاث ضربات على زجاج النافذة .

في تلك اللحظة لم أعد أهزأ بموضوع « المس » وبدأ الخوف يتملكني، كنت أمسك المريضة بذراعيها لأمنعها من الاهتزاز والاضطراب فسمعت صوتاً صغيراً حاداً كان يقول: « لا تلمسيني يا أختي ، فأنتِ نجسة ».

أجبته :

« لست أنجس منك ! من أنت كي تقول لي هذا ؟

- أتيت من مكة ، أنا الشريف ريحان .

- لكن لماذا أنا نجسة بنظرك ؟

- أنت أدرى مني بذلك ! »

وقد كان فعلاً على حق، كنت قد نسيتُ أن العادة الشهرية قد أتتني ذلك اليوم فقلت له : « ماذا تريد ؟ »

فأجاب : « أن لا يحقنونا بالحقن ، فإنه يتعبنا ... لا تحقنونا وسوف أعود من حيث أتيت » .

وكانوا قد جهزوا في هذه الفترة البخور و(العُودَة) كي تستنشقها المريضة ، وسمعنا ثلاث مرات (الله)! وثلاث مرات ضربات على زجاج النافذة ! . ثم انتهى كل شيء !. وتوجهت بنظري إلى المرأة ؛ كانت قدمها قد نزلت إلى السرير ونامت .

إنه شيء لا يصدق وشيء لم أكن لأصدقه لو أني لم أره بأم عيني .

فاطمة

في أحد الأيام أدخلوا في قسمنا فتاة صغيرة وكان عمرها - كما يبدو منها - خمسة عشر عاماً ولكنها بالكاد لم تبلغ الثانية عشرة .. كانت تنظر حولها بنظرات شاردة ، كما لو أنها كانت تبحث عن شيء ما . كان الطبيب يعالجها في بيتها منذ فترة ولكن نظراً لأنها ازدادت شحوباً شيئاً فشيئاً وبها فقر دم ، فقد قرر الطبيب أن يدخلها إلى المستشفى .

كانت أمها تأتي لرؤيتها . أوضحت لنا أنه في أحد الأيام كانت ابنتها فاطمة في الحمام عندما سمعت الأم ضحكة قوية جداً تلتها صرخة : « الشيطان ، الشيطان ! » فقالت لها الأم بأن تسكت ولكن حين لم ترها تخرج من الحمام ، ذهبت لتفقدها .. كانت الصغيرة ممتدة على الأرض وجسدها يهتز في تشنجات . و قد التوى فمها ، واتسع حتى الأذنين . أخذتها أمها بين ذراعيها وذهبت بها إلى الغرفة لكي تنام وبعد قليل لم يعد فيها شيء . لكن حدث لها فيما بعد أزمات أخرى . وبدأت تضعف ولم تعد تريد الأكل .

فقالت فاطمة العجوز – التي تعمل كخادمة في المستشفى – : « إنه مس من الشيطان » . بالنسبة لي لم أرد أن أصدقها .

و في أصيل أحد الأيام ، كنت أمرُ على الغرف لأتفقد كل مريضة قبل هبوط الليل ، فطلبت مني الفتاة الصغيرة أن أضع (الموقد) بالقرب منها لأن

الجو بارد . فوضعت فاطمة العجوز موقدها بالقرب من فاطمة الصغيرة . فجأة سمعت صرخة قوية ! فأسرعت إلى باب الغرفة وتسمرت من الخوف !

كان وجه الفتاة قد تغير ، كانت مقطبة الجبين وجاحظة العينين والفم ملتوٍ وقد اتسع حتى الأذنين . كانت كأنها عجوز بشعة و كانت تضحك و كأن الشيطان فعلاً قد تلبسها . ثم انكبت على الجمر وأخذته بيدها وأكلته . وسمعتُ طرطقة و(قزقزة) الجمر في فمها ، ثم سقطت إلى الخلف وبقيت بدون حراك. أسرعت نحوها وفتحت فمها لأرى إن كان الجمر ما زال بداخله .. لكن لا شيء ! كانت قد ابتلعت كل شيء . لا يوجد أي أثر لأي حروق ، لا على يدها ولا فمها . وقد حدث كل ذلك أمامي .

ياله من أمر لا يصدق ! وقد بقينا حولها كالأصنام ، وفي صباح اليوم التالي أتى الطبيب لرؤيتها . ولم يجد فيها أي أثر للحروق! ولكن حالتها ساءت شيئاً فشيئا إلى أن ماتت بعد شهر .

الفصل الحادي عشر

" مسك " جارية قديمة

مسك هي امرأة سمراء وجميلة عمرها أربعون سنة وأصلها من بيحان لقد كانت جارية قديمة لدى سيف الإسلام العباس ، أخي الإمام أحمد ، ملك اليمن . و كان والداها قد باعاها لسيدها الأول و عمرها عشر سنوات.

وعندما تركت بيت والديها ، قصوا خصلة من شعرها وأعطوها إلى أمها.

فسألَت :

« لماذا فعلتم هذا ؟

- لأنكِ لن تعودي أبداً إلى هنا . وبهذه الطريقة لن تندم والدتك عليك ولن تندمي عليها ...»

وقد بقيت مع سيدها الأول سنة ونصف . كان طيباً معها ويحترمها ؛ حيث كان عملها يقتضي البقاء مع أطفاله الصغار واللعب معهم .

لكن الأمير العباس رآها في زيارة لسيدها و اشتراها وأقام مباشرة معها علاقة ، وأنجبت منه في سن السابعة عشر طفلاً ولكنه ولد ميتاً .

كانت قد بلغت الثلاثين حين زوجها سيدها العباس بأحد عبيده قبل قيام الثورة بعدة سنوات .

وقد قتل زوجها عندما ثار العباس على أخيه الإمام أحمد في عام 1955م وقد أعدم العباس فيما بعد وبقيت مسك سنتين مع عائلته بعد إعدامه ثم تزوجت من تاجر أقمشة من ذمار وأنجبت منه طفلة . و لكنها تتحسر على الزمان الذي عاشت فيه بهدوء في منزل العباس؛ فمنذ ذلك الحين لم تعد مسك سعيدة .

الفصل الثاني عشر

الإمام أحمد في زيارة للمستشفى

في صنعاء عام 1958م

لقد تأكد الخبر ؛ سوف يأتي الإمام لزيارتنا . لديه موعد في صنعاء مع ملك المملكة العربية السعودية ، وقد كانت تلك هي الزيارة الأولى له منذ بداية حكمه . ولم أرَ أبداً العاملين في المستشفى يعملون بهذه الطريقة .. فقد عملوا حتى ساعة متأخرة من الليل . كان المستشفى مليئا بالحيوية كأنه خلية نحل وقد جهز الكثير من العاملين رسائل التماس ليقدموها إلى الإمام . بالنسبة لي ، لم أكلمه أبداً ولكني كنت قد شاهدته مرة واحدة فقط في مدينة تعز على حصانه المليء بالزينة في يوم العيد الكبير .

أخيراً أعلن أحد الحراس نافخاً بالبوق وصول الإمام وكان يرافقه الكثير من الحرس وعِلية القوم وكان بالقرب منه إخوته ؛ سيف الإسلام الحسن نائب الملك في صنعاء ، وسيف الإسلام إسماعيل وزير الصحة. وقد دعاه مدير المستشفى إلى الصعود إلى المكاتب حيث كنا قد جهزنا مائدة استقبال مع المشروبات لكنه رفض وبدأ جولته في المستشفى . لم يكن يتقدم بسرعة لأنه في كل مرة كان يأتي أحدهم ليسلم عليه ويعطيه ورقة صغيرة . أما أنا فقد مكثت على باب قسمي وكنت أراه يتقدم ببطء في الممر وكنت أحكي لمرضاي أين أصبح بالضبط .

وصل أخيراً إلى أمامي فحييته و وضع يده على كتفي فكلمه أحدهم في أذنه .. فقال : «آه ، أنتِ الفرنسية نجيبة ! »

وامسك بيدي وتوجب عليّ حينها أن أرافقه في جولته بأكملها في المستشفى . سألني : « هل أنت سعيدة هنا ؟ » أجبته « نعم » وعندما رأيته لطيفاً جداً معي أخبرته أن راتبي ضئيل فأجابني : « أنا أدري وسوف نتحدث عن هذا الموضوع بعد قليل » .

واصلنا جولتنا إلى أحد المباني حيث توجد الآن الكشافة ، لكن في ذلك الحين كنا نريد أن نستخدم هذا المبني كحمامات ، وزار الإمام المبنى بأكمله وقال : « اعتقد أنه بالإمكان الاستفادة منه للكشافة ». وهذا ما تم تنفيذه.

في ذلك اليوم - وهي المرة الوحيدة - كان المستشفى نظيفاً جداً وكان الإمام سعيداً جداً بذلك . لكن أثناء خروجنا من الممر إلى الساحة ، لا أدري أي أحمق هو ذلك الطفل الذي قضى حاجته قبل خروجنا بقليل عند الباب بالضبط ! وصرخ الإمام بصوت عالٍ ملؤه الغضب أن يحضروا له حارس القسم !! أتى المسكين وكان وجهه أصفر من شدة الخوف !؛ وقال له الإمام : « ما هذا ؟ » فلم يجرؤ الرجل أمامه على قول شيء فأكمل الإمام : « هذا براز!» .

أخذ الإمام بأذني بين أصابعه الرجل وشدهما قائلاً: « اليوم سأتغاضى عن هذا الموضوع أما في المرة القادمة ، سأجعلك تجمعه بفمك » . أصابني الخوف جداً وارتبكت بشدة و قد لاحظ الإمام ذلك وقال لي : « لا تخافي يا نجيبة ! أنا لا آكل أحداً لكن يجب أن يكون المكان نظيفاً » .

ضحك الجميع عندما قال الإمام هذا و أنهى زيارته بسرعة وكان قد قال لي قبل مغادرته أن أذهب لرؤيته . أخبرت زوجي الذي نصحني بأن أعجل بالذهاب إليه قبل أن يغير رأيه فذهبت في اليوم التالي إلى قصر الإمام في الروضة . كان يوجد حوالي مائتا شخص على باب القصر والكل يحمل ورقة في يده .... مثلي ! انتظرت ساعتين ثم غادرت و أنا آمل أنه في الغد سيكون الناس أقل من اليوم . ولكن في الغد لم يعد هنا ، ولم أحصل أبداً على زيادة في الراتب .

الفصل الثالث عشر

يوم الثورة

26سبتمبر 1962م

تزايد عدد التعساء في اليمن في فترة الخمسينات . لم يكن الفلاحون فقط هم التعساء لجهلهم ، فقد كانوا جهلاء إلى أبعد الحدود ، مستسلمين للوضع. لقد كان التعساء أيضاً هم سكان المدن الذين يملكون (المذياع) الذين كانوا يستمعون إلى (القاهرة) أو إلى البرامج العربية الخارجية وكانوا يعلمون ما ينقصهم ويتحسرون لأنهم ليسو كسكان البلاد الأخرى . أما بالنسبة للطبقات العليا في المجتمع و الأغنياء فقد كان الوضع يلائمهم و كانوا يريدون ربح المال الوفير مع رجال الأعمال الأجانب .

كان الإمام متسلطاً جداً و لكنه كان تقياً جداً وزعيماً دينياً للمسلمين الزيديين في اليمن . و لم يكن يبحث عن تحديث البلاد لأنه كان يخشى على الإيمان من تطور البلاد . وهكذا فقد تآمر بعض اخوته عليه ليستولوا على السلطة عام 1955م إنه سيف الإسلام عبد الله الذي كان سفيراً في فرنسا- وقد اعتنقت الإسلام بالقرب منه - وكان معه سيف الإسلام العباس الذي كان يشرب الكونياك . و مازلت أتذكر زيارة العباس للمستشفى حيث كان لدينا في القسم إحدى جواريه (غالباً ما تكون جواري العباس غير محبوبات ، لأنهن متكبرات ، ومبالغات ؛ كنّ دائماً يردن غرفاً خاصة ويردن أن يخدمن قبل الأخريات) وقد اشتكت هذه الجارية التي أتى العباس لزيارتها إليه من أحد الممرضين (مع أنه كان مخلصاً في عمله) . و كان العباس ثملاً للغاية ... فقام بصفع الممرض وأمر في الحال بأن توضع الأغلال في قدميه . وقد كان ذلك عقاباً معمولاً به وما زال يعمل به أيامنا هذه أحياناً . لكن في اليوم التالي عندما وصل الطبيب ورأى أفضل ممرضيه يقوم بعمله وهو يجر قيداً

ضخماً على كاحليه ، غضب وذهب إلى المدير وجعله يأمر بفك قيد الممرض في الحال.

في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم في 1955م ، كنت ما أزال في المستشفى عندما سمعت عدة طلقات من بندقية في المدينة :

كان الأميران قد تمردا لتوّهما مع موالين لهم . لكن الإمام كان يعلم بهذا مسبقاً ، وعندما دخل المتمردون إلى تعز حيث كان يسكن الإمام استقبلهم الجند الذين كانوا ينتظروهم وانتهت المعركة بخسارة المتمردين وبعد عدة أيام علمنا أن الإمام كان قد أعطى الأوامر بإعدام أخويه . كان الأمير عبد الله سخياً جداً فقد وزع كل ما تبقى له من مال على الجنود في السجن أما بالنسبة للأمير العباس فقد حكوا لنا أنه قد توجب على الجنود جره جراً إلى ساحة الإعدام . في نفس الوقت في صنعاء ، كان هناك الكثير من عمليات التوقيف لشخصيات اشتبه بصلتهم بالتمرد وقد استمر بقاء الموقوفين في السجن حتى أخرجوا ليدخل آخرون بدلاً منهم إلى السجن في ثورة 1962م .

و ما كان باستطاعة الوضع أن يستمر كثيراً وما عاد باستطاعة الإمام مواصلة الاحتفاظ ببلد معزول كلياً. فتم تدبير مؤامرة أخرى بعد فترة . كان الإمام يزور الحديدة وعندما احس نفسه متعباً قرر زيارة المستشفى للعلاج وعندما كان في غرفة الكشافة وقد خلع ملابسه قام المتآمرون بدفع حراس الإمام بشده ووصلوا إليه و أطلقوا عليه النار و أصابوه عده إصابات خطيرة . وقد قتلوا قبل أن يتمكنوا من الخروج من المستشفى . لكن الإمام كان قد

أصيب إصابة بالغة ؛ لكنه لم يستسلم إلى أن مات بعد ذلك بسنتين في عام 1962م .

نقلت جثته إلى صنعاء وكان لديه جنازة فخمة جداً حضرها حشد كبير وبعض الوفود في الخارج لأنه رغم كل شيء كان له مكانة كبيرة . وقد دفن في فناء أحد المساجد في صنعاء ولكن لا يسمح بزيارة قبره حالياً.

كان الابن البكر للإمام هو سيف الإسلام البدر ولي العهد وقد أصبح الآن إماماً لليمن ولكن حكمه لم يستمر أكثر من ثلاثة أسابيع .

في تلك الليلة – ليلة الثورة – كان مهيوب زوجي قد نام مبكراً لأنه في الليلة السابقة لم ينم من تأثير القات[1] الذي كان باهض الثمن في تلك الفترة و بالنسبة لي كنت أقرأ في سريري عندما سمعت حوالي الساعة العاشرة دوي انفجارات كبيرة في المدينة . لم أميز في البداية إن كان ذلك الدوي هو دوي الرعد أو دوي المدافع . كنت أستطيع من نافذتي أن أرى المدينة بأكملها منبسطة حتى أقدام جبل نقم و كنت أرى وميض النار بين المنازل في نفس الوقت الذي يحدث فيه دوي الانفجارات . إذاً كان ذلك دوي المدافع !

واعتقدت في البداية أنها إحدى المناسبات . أنها العادة هنا أن تطلق طلقات المدافع في المناسبات الكبرى ولكن لازال هناك طلقات أخرى !

[1] - إن تأثير القات يكون بصورة مباشرة على الجهاز العصبي و في مواضع مختلفة من الدماغ تؤدي إلى عدم الانتظام في المجرى الحسي ، الذي يقوم بالتهيئة للنوم ، كما أن انشغال الفرد و زيادة تفكيره يبعده عن الإحساس بالنوم و نجد الإفراط في شرب الشاي بعد إخراج القات من الفم هو سبب آخر في انعدام النوم.

و أخرى ! وهكذا ذهبت لإيقاظ مهيوب . لم يصدقني وقال لي : « أنتِ غبية . أنه الرعد ، دعيني أنام ». ولكن طلقة أخرى رجّت البيت .

وهكذا فهم زوجي أن هناك أمراً غير اعتيادي وبرغم أن الساعة متأخرة فقد استيقظ جميع سكان الحارة و بدأوا يقطعون الشارع ذهاباً و إيابا لمعرفة ما يحدث ثم سمعنا أصوات الدبابات التي كانت تعبر المدينة . طلبت من مهيوب أن يلبس ثيابه ويذهب لمعرفة ما يحدث ولكن جارنا قال لنا : « من طريقة إطلاق النار من البنادق ، اعتقد أنهم العساكر و من الأفضل عدم الخروج » .

بالتأكيد لم نستطع النوم تلك الليلة وحوالي الساعة الرابعة فجراً استطاع أحد الجيران ـ و كان يعمل حارساً لدى أحد الأمراء ـ أن ينجو بنفسه ويعود إلى بيته، و قال لنا إن هناك (تمرد) للجيش ضد الإمام الجديد وكل عائلته وفعلاً في اليوم التالي لم تقم الإذاعة إلا بترديد :

« هنا صنعاء ، إذاعة الجمهورية العربية اليمنية » .

وانتهى كل ما يتعلق بالنسبة لليمن القديم .

مع كل هذا ذهبت إلى المستشفى كالمعتاد . ولم يكن من أحدٍ في الشوارع وقد ظلّت كل المحلات مقفلة وكانت تمر من وقت لآخر دورية جنود ويسمع أصوات بعض الأعيرة النارية . و قد حضر إلى المستشفى بعض الأطباء والممرضين فجمعنا المدير وقال لنا : « لا أريد أن أجبر أحداً على المجيء

لكن اعلموا أن هناك مرضى يحتاجونكم و أنكم هنا بمأمن من أي مكان خارج المستشفى ! » .

في قسمي كانت المريضات قلقات جداً ، فبعضهن يبكين و أخريات يصلين ويبتهلن إلى الله ، وقامت البعض بجمع أغراضهن في الصرر كي يغادرن المستشفى . البعض الآخر كن يستمعن إلى الإذاعة ولكن لم يعرفن ما يجري . أخيراً ، حوالي الساعة العاشرة صباحاً أمر المذيع في الإذاعة الجميع بالعودة إلى منازلهم لأن الجيش سوف يهاجم قصر الإمام حيث كان يتحصن . ثم أتى مهيوب إلى المستشفى مصحوباً باثنين من الجنود والثلاثة يحملون البنادق على أكتافهم . وكان الثلاثة قد أتوا ليرافقوني إلى البيت : « لو كنا سنموت ، فإني أريد أن نموت معاً » . قال لي مهيوب . ثم سمعنا فوراً دوياً قوياً للمدافع ولم نعد نرى من قصر الإمام إلاّ الغبار المتطاير والدخان . قتل العديد من الناس في قصر الإمام ولكن الإمام لم يقتل . فقد استفاد من الدخان وبمساعدة أحد العبيد استطاع أن يهرب عن طريق الحدائق متنكراً في زي امرأة عجوز ولم نعلم هذا إلاّ فيما بعد . أما في تلك اللحظة فقد اعتقد الجميع أنه قد قتل .

في نفس اليوم قتل العديد من الأمراء : إسماعيل وزير الصحة وعلي (المجنون) [1] وزير التربية وبعض أولادهم وقد استطاع بعض الأمراء أن ينجوا بأنفسهم . ثم علمنا أن الذي قاد التمرد هو (السلال) قائد الجيش.

قبل الثورة بيوم كان الإمام الجديد قد رغب في عرض عسكري فطلب منه السلال مفاتيح مباني الجيش لإخراج العربات العسكرية فأعطاه الإمام . وكان السلال صديقه وكان الإمام يثق به . و لكن في اليوم التالي عندما خرجت العربات لم يكن ذلك من أجل استعراض بل من أجل الثورة .

في الأيام التي تلت الثورة كان هناك الكثير من عمليات الاعتقال و الإعدام لكني أعتقد إنه قد قيل أكثر بكثير مما قد حدث .

عادت الحياة في كل مكان أمّا عائلات الأمراء فقد جمعن في أحد القصور وقد وفرت الحكومة للعائلات الأشياء الضرورية حتى مغادرتها إلى المملكة العربية السعودية .

---

[1] - وصف للكاتبة (كلودي فاين) وليس للساردة (فرانس هوس) ، وقد وصفت سيف الإسلام علي بـ (المجنون) لأن تصرفاته كانت تدل على كونه أحمق و كون حاشيته تخاف من مزاجه المتقلب و قد كتبت في كتابها الأول كنت طبيبة في اليمن (و قد اختاروا للإذاعة أرضاً واسعة قريبة من باب الروم و مجاورة لقصر سيف الإسلام علي وزير التربية ، و هو أمير لا يظهر إلا نادراً و مزاجه عرضة لتغيرات فجائية سريعة تحير حاشيته و تقلقها... و الأرض في صنعاء غالية ، و قد أبدى السيف علي ادعاءات معينة بخصوص الأرض الواسعة المجاورة لقصره ، و أقام بها ستة مراكز ، رتب فيها عدد من العساكر المسلحين و أعلن أن كل من تسول له نفسه أن يخطو خطوة واحدة في إقامة ساريات الإذاعة فإنه سيصفي معه الحساب في الحال .. و لم يجرؤ أحد على هذه المقامرة بطبيعة الحال ، وهو يفكر في إبعاد محطة الإذاعة كيلومترات نحو الشمال ، يا له من جنون ظاهر) أما البردوني فقد ذكر في كتابة (الثقافة و الثورة في اليمن) أن سيف الإسلام (علي) قد سرق من المال العام (خيشة) أي كيس من المال به ألف ريال فضي ، و قد عرف الإمام يحيى بالموضوع و طرح المعارضون السياسيون الذين يتوارون خلف العلماء رأياً بأن يقطع الإمام يد أبنه حتى يكون مثلاً لغيره و لكن الإمام لم ينفذ حكم و كل ما نفذه هو إصدار أمر إلى أمين بيت المال باقتطاع ربع مرتب ابنه (علي) حتى استيفاء ألف ريال مع العلم أن مرتب ابنه كان 30 ريالاً .

أي مدينة أصبحت صنعاء ! لقد أتى الأجانب من كل مكان : أطباء ، مهندسون ، رجال أعمال ، صحفيون ، موظفو الصليب الأحمر ، صينيون ، روس ، كوريون ، ألمان ، مصريون ، لم نر مثلهم من قبل .

تقريباً كان الجميع مع الثورة لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمام البدر قد قتل ولكن حين علموا أنه لا زال على قيد الحياة في المملكة العربية السعودية بدأت الأشياء تتغير ، فبدأ أفراد العائلة الملكية بتجنيد جيوش من قبائل الجبال الشمالية ليستعيدوا ما كانوا قد فقدوة.

وقد انضم البعض إليهم وحدثت بعض المواقف المأساوية : الوالد مع معسكر و الابن مع الآخر أو أن يكون الأخوان في معسكرين متواجهين .

لكن هذا يحدث دوماً في كل الثورات .

لحسن الحظ أن القوات المصرية قد نزلت في ميناء الحديدة لمساعدة الجمهورية. على جانبي المعركة كان هناك رجال شجعان ، كلٌ يعتقد أن الحق إلى جانبه . و هكذا بدأ الجرحى يتوافدون إلى المستشفى بكثرة وكان هناك متسع في المكان يكفيهم ، إذ كان كثير من المرضى قد فضلوا العودة إلى ديارهم .

يُحكى أن البعض كانوا ينشرون أخباراً خاطئة وكان الناس جهلاء جداً ويصدقون أي شيء وقد رأيت بنفسي بعضهم .. فهناك من كان يعتقد أن الجمهورية هي امرأة ، وكانوا يقولون :

« كيف يستطيع السلال أن يتزوج بالجمهورية مع أنها متزوجة من قبل بعبد الناصر في مصر ».

و لكن كان الناس يسخرون من هؤلاء الجهلاء وانتهى هذا الموضوع من بين ألسنة الناس وظهر موضوع أخطر !

غضبتُ جداً في إحدى المرات عندما وصلت إلى باب المستشفى وكان الناس منهمكين في حوار جاد وقالوا لي : « أحقاً يا نجيبة ما يقولونه لنا ؟ أنه إذا انتصرت الثورة فإنهم سيأخذون كل شيء ، نساءنا وبيوتنا و أطفالنا ولن نملك إي شيء بعد ذلك ! »

رغم أنني أخبرتهم أنه على العكس من ذلك وأن الجمهورية هي لمساعدتنا على عيش حياة أفضل إلا أنه كان هناك دائماً من لم يقتنع كلياً.

أغضبتني أشياء أخرى: على سبيل المثال كان يرد عليّ بعضهم حين كنت آمرهم بأمرٍ ما :

« يكفي يا نجيبة ! لا تأمرينا بعد الآن ! إننا في عهد الجمهورية ونستطيع أن نفعل ما يحلو لنا » .

فكنت أجيبهم أنه مهما يكن فليس لدينا الحق في ارتكاب الحماقات كما يحلو لنا ، ومع ذلك فقد كان من الصعب عليهم أن ينفذوا أوامري بسهولة .

وبقيت الأوضاع كما هي لعدة سنوات . فتارة يتقدم الملكيون خطوة أو خطوتين وتارة يتراجعون خطوة أو خطوتين وهكذا الحال مع الجمهوريين. أما المصريون فقد فقدوا الكثير من الرجال لأنهم لم يتعودا على القتال في الجبال . و أيضا مع مرور الوقت واجه المصريون مشاكل مع الجمهوريين.

وهكذا وقع عبد الناصر اتفاقاً مع ملك المملكة العربية السعودية يقضي بأن تعود القوات المصرية إلى مصر .

يا للمساكين ! كم كان الجنود المصريون سعداء ! فقد قاموا بعرض عسكري في صنعاء ؛ و على المركبات العسكرية كنا نشاهد الجنود يرقصون ويصفقون . لكن بعد مغادرتهم أصبحت الأوضاع أشد خطورة علينا .. فلم يعد لدينا ما يساعدنا إلا الأسلحة السوفيتية .

تقدم الملكيون وحوصرت صنعاء وقطعت كل الطرق من كل الجهات حول صنعاء ، وتمركز الملكيون والجمهوريون في الجبال التي تحيط بصنعاء ولم يتواجهوا في معارك قوية فقد كانوا يتربصون ببعضهم البعض في النهار وفي الليل ينصبون لبعضهم الكمائن . وعلى عكس المواقع العسكرية في الجبال ، ففي المدينة عانى الأهالي كثيراً وقتل حوالي ثلاث مائة أو أربع مائة، وكان الملكيون يطلقون علينا قذائف وقنابل أمريكية الصنع زودتهم بها المملكة العربية السعودية . كنا نسميها (القنابل المليئة بالشظايا) . و لم نكن نسمع صوت المدافع ، فقط صفيرٌ بدون معرفة من أين أتت أو أين ستقع . ثم ما تلبث أن تنفجر بكميات كبيرة من القطع الصغيرة التي تخترق كل مكان وفي المستشفى كنا نشاهد وصول حوادث مرعبة وكان الجراحون يعملون ليل

نهار . اعتقد أن أسوأ حادث قد وقع هو عندما احضروا لنا بطانية بها بقايا ممزقة لخمسة أطفال قتلوا معاً عندما كانوا يلعبون أمام دارهم .

كان الناس هادئين رغم كل شيء كان البعض يقول : « إنهم الآن يتغلبون علينا ولكن ستدور الدائرة عليهم » . و آخرون يأملون : « متى سننتهي من هذا ، فينتصر الفريق الذي على حق ؛ إن الله عظيم وهو عليم بكل شيء وسينصر من كان على الحق » . أخيراً استطاع الجمهوريون فتح طريق (الحديدة - صنعاء) بعد شهرين من الحصار ولم تعد صنعاء محاصرة بعد الآن وبدأ الملكيون بالانسحاب شيئاً فشيئاً وفي عام 1971 م أبرمت اتفاقية سلام. (وانتصرت الجمهورية أخيراً) .

ولكن مع ذلك لم ينتهِ كل شيء فقد كان المنهزمون يقومون بأعمال تخريبية ، فكانوا يضعون ألغاماً في الطرقات لتنفجر عند مرور السيارات وهكذا مات كثيرون بهذه الطريقة . وفيما بعد كان هناك سلسلة من الانفجارات بقنابل البلاستيك . وقد قال الذين ألقي القبض عليهم وهم يضعونها أنهم قد استلموا مقابل ذلك مالاً أرسل لهم من عدن . لا شك أن ذلك ليس صحيحاً لكن أعداء الجمهورية كانوا يريدون وقوع حرب بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي : فقد قامت جمهورية اليمن الجنوبي بعد خروج البريطانيين .

يا لليمن التعيس ! لقد كان جميلاً جداً وهادئاً جداً ، أما الآن فقد غدا مضطرباً و لم يعد جميلاً كما كان . لكن المكيدة بين البلدين قد خابت فقد وقَّع البلدان الشقيقان اتفاقاً ليتوحدوا في دولة واحدة لأنهما في الواقع كانا دائماً بلداً واحداً . ولكن لم تتم الوحدة إلى الآن فلا زالت هناك بعض الصعوبات . لكنني أتمنى أن تتوحد اليمن في يوم من الأيام .

الفصل الرابع عشر

العصر الجديد

و نساء العصر الجديد

حوار مع فرانس هوس في 1979م

- فرانس هوس ! لقد عشتِ هنا قبل الثورة ، ما الذي تجدينه قد تغير في اليمن الجديد منذ الثورة ؟

- بعد الثورة ليس مباشرة يا دكتورة ، فقد استمرت الحرب بين الملكيين والجمهوريين حتى عام 1971م . ثمان سنوات من الحرب لم يكن التطور ممكناً أثناءها ، لكن التطور مشى بسرعة في الأعوام الأخيرة . لقد تغيرت المدن الكبرى مثل صنعاء ، تعز و الحديدة : يوجد الكثير من السيارات والكثير من الضوضاء .... و هناك المحلات التجارية المكتظة بالبضائع الأجنبية الغالية جداً لدرجة أن الكثيرين لا يملكون إلا النظر إليها عبر الزجاج. وفي المدن نستطيع أيضاً رؤية شيء حديث كلياً ، إنهم رجالٌ ونساءٌ يمنيات يسيرون معاً ، فالرجال كانوا دائماً سعداء بأن يتجولوا مع طفل يحملونه ، لكن بصحبة امرأة ، ياله من عار ! فإن كان يجب عليهم الخروج معاً – الرجل والمرأة – فإن المرأة كانت تمشي دائماً على بعد عدة أمتار خلف زوجها بينما في أيامنا هذه ، اعتقد أنه بفضل السواح بدأت الأشياء تتغير. من فرط رؤية أجانب يتجولون مع نسائهم ، هؤلاء الأجانب الأغنياء المثقفون و المتحضرون الذين يحلم الشباب بتقليدهم ، فقد بدأ الرجال يفكرون أنهم يستطيعوا أن يفعلوا مثلهم بدون أن يقل احترامهم عند الناس. وفي متحف صنعاء ، بدأنا نرى شيئاً فشيئاً رجالاً يأتون للزيارة مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم .

شيء آخر لم نر مثله أبداً في الماضي هو رؤية فتيات يذهبن ويعدن من المدرسة . يحملن حقائبهن فوق رؤوسهن . وقد لبسن أيضاً الخمار الأسود مثل السيدات ، وبالنسبة إليهن لم يكن ذلك إزعاجاً لهن ، بل على العكس فإن ذلك يدل على أنهن اصبحن ناضجات وذلك إعلاءٌ من شأنهن و شرف لهن .

وفي المدرسة استطعن أن يظهرن ذكاءً حاداً مثل الأولاد.

فهن يفهمن بسرعة ويحفظن جيداً . و شيئاً فشيئاً أصبحن كُثر من يردن إكمال الدراسة ليصبحن سكرتيرات ، ممرضات ، معلمات وطبيبات . و من النادر جداً أن يتوقفن أثناء الدراسة عن التعليم من أجل الزواج . أذلك لأن الآباء أصبحوا متفهمين أكثر؟ أم لأن البنات أصبحن عنيدات أكثر ؟ ولكني لم أشاهد هنا مشاكل الزواج الإجباري الذي يقطع التعليم ، إنه وكما يبدو فإن هذه المشاكل ما زالت في شمال أفريقيا .[!!]

وفي المستشفى أيضاً كل شيء قد تغير. لحسن الحظ أن ذلك الزمان قد انتهى يا دكتورة ، ذلك الزمان حين كنتِ أنتِ والطبيب فينروني (1) الطبيبان الوحيدان لمدينة يقطن فيها 40.000 نسمة . حين لم يكن لدينا دواء لمرض السل ، حين كنا نفقد امرأة من بين كل عشر يلدن ولادة غير طبيعية ، و ذلك لافتقاد الجراح الذي يستطيع القيام بعملية قيصرية .

---

[1] - كان الطبيب فينروني المقيم في صنعاء منذ فترة طويلة الطبيب الوحيد ؛ و قد التقت به الطبيبة كلودي فايان يوم وصولها إلى صنعاء في سنة 1951 و كانا هما الطبيبان الوحيدان في صنعاء في تلك السنة حتى غادر صنعاء في منتصف ذلك العام و بقيت هي الطبيبة الوحيدة في صنعاء .

أما الآن فهناك العشرات من الأطباء في كل التخصصات . حتى أن الصينيين أجروا عملية قلب مفتوح لطفل صغير. في المدن الكبرى والضواحي ، أنا متأكدة أن الناس يتلقون علاجاً بشكل رائع ، و لكن في الريف وفي الجبال التي لا يوجد بها طرقات ، لم يتغير الشيء الكثير . و لكني أتوقع أن يتغير كثيراً ، ثم إن المستشفيات قد اكتظت بالممرضات اليمنيات الشابات وهن بارعات وفاعلات في عملهن . لكن مع ذلك فإني أغضب غالباً لأن تصرفات البعض منهن أصبحت سيئة جداً نتيجة للمزايا التي يمتلكنها . لقد أصبحن فخورات جداً بأنهن الرائدات بامتلاك شهادات الدبلوم لدرجة أنهن أصبحن أحياناً متكبرات جداً .

بالتأكيد مازال هنالك الكثيرات اللاتي يتعاملن بلطف و بإخلاص مع المرضى . لكن البعض يبقين جالسات على الأسرّة يدخن (النرجيلة) ويثرثرن مع زميلاتهن . وعندما يتوسل بعض الأمراض طلباً لصحن الطعام! فإن ذلك يبدو لهن إهانة لكرامتهن !

وبدأ الناس يقولون إنهن لم يدرسن إلا لمصلحتهن الشخصية وليس كي يستفيد منهن الآخرون . أما الخادمات القديمات في المستشفى و اللاتي لا يستطعن القراءة فإنهن يملكن غالباً قلوباً أرحم بكثير منهن .

- كل هذا يا فرانس هوس نستطيع رؤيته في الشارع وفي المستشفيات وفي الحياة الاجتماعية . ولكن ما الذي تجدينه قد تغير في العائلات ؟

- في العائلات الصديقة التي أعرفها منذ فترة طويلة ، فإنني متأكدة أنه ومنذ الثورة لم يعد الرجال والنساء منفصلين في الحياة كثيراً ، على سبيل المثال :

قديماً كانت المرأة لا تأكل أبداً مع الرجل فهي كانت تأكل في المطبخ أو في نفس الغرفة التي أكل فيها الرجال ولكن بعد أن يغادروا . أما اليوم فعلى الأقل أنه عندما يُدعى أحدهم في إحدى العائلات فإنه من الملاحظ أن العائلة تكون مكتملة حول المائدة الرجال مع النساء ، وهذا يعتبر تطوراً كبيرا و عميقاً جداً.

أما ما لم يتغير بسرعة فإنه (التطيّر) أو العقيدة فيما يخص علاج الأطفال ولا سيما الخوف من العين الخبيثة .

مستحيل أن تفهم النساء أن الشمس وعلى الأقل النور ضروري لتقوية عظام الرضيع . فهن مرعوبات جداً من نظرة حسودة من إحدى الجارات وهكذا فإن الطفل يبقى دائماً حتى سن الثمانية أشهر في الظل داخل البيت . لكن على الأقل ، يستشرن الطبيب عندما يكون الطفل مريضاً وأعتقد اعتقاداً جازماً أن مستوى وفيات الأطفال الذي كان بنسبة واحد إلى ثلاثة قد تدنّى الآن .

أيضاً فإننا نرى الأسر ذات الأعداد الكبيرة بدأت تقل ، وبدأت النساء تعرف وتلاحظ سهولة منع الحمل . و هن يأخذن هذا الدواء بإرادتهن عندما يصبح لديهن عدد معقول من الأطفال وذلك إن كان سعر (حبة الدواء) معقولة .

بالنسبة للزواج فلم أعد أسمع عن فتيات صغيرات يتزوجن قبل البلوغ في صنعاء ، ولا زال ذلك ممكناً في الريف لأنه لا يتطور بسرعة .

أما هنا فقد أصبح ذلك الآن ممنوعاً بحسب المبدأ أمّا الشخص الذي يخاطر ويتزوج بفتاة قبل البلوغ فإنه سيلام بشدة من المحيطين به وسيعتبرونه متخلفاً ومتأخراً عن ركب الحضارة . وسيبتعدون عنه كعقاب له [1].

إن الآباء هم من يرتبون للزواج ومازال حتى أيامنا هذه الكثير من الذين خطبوا وينتظرون الزواج لم يتقابلوا أبداً مع من قدر لهم أن يكونوا شركاء حياتهم . ومع ذلك فهناك تطور ما ، إنه (التلفون) ! فقد سمح للمخطوبين بتبادل الصور مسبقاً! و الآن يستطيع الخطيب والخطيبة أن يتصل أحدهما هاتفياً بالآخر كما أن كلاً منهما يستطيع معرفة نبرة صوت الآخر (كثر زواج الزملاء في العمل وقد قوبل بالرضا من الآباء وتستمر المرأة في عملها حتى أول مولود على الأقل ، وقد تواصل عملها إن كانت العائلة تساعدها وهذه الحالة الغالبة) .

وكان هناك حكايا كثيرة مع التلفون في بداية انتشاره . بعض الشباب يبحثون دائماً عن ارتكاب الحماقات ، فكانوا يتصلون إلى المنازل في الأوقات التي يكون الرجال فيها خارجاً ويحاولون التحدث مع النساء والحصول على موعد .... إنها عائلة الزوج ، إن كانت تخشى ألا تكون الزوجة عفيفة ،

---

[1] - بالنسبة للزواج من الفتيات الصغيرات فإنه ما زال موجوداً في الريف اليمني بكثرة و للأسف الشديد مازال بعض الشباب في المدن يفضلون الزواج من فتاة صغيرة و لا يقتنعون أن هذا الزواج غير متكافئ فكريا و أن الهوة الثقافية واسعة جداً بين رجل ناضج و (طفلة) إلا بعد أن ينتهي هذا الزواج نهاية مأساوية كالطلاق أو المشاكل الكبيرة بين الأسر .

فيلقون لها فخاً بأن يراودوها عن طريق التلفون ، للتأكد إن كانت ستقبل أم لا ... ولم أعد أسمع حديثاً عن هذه الأشياء الآن .

بالنسبة للتلفزيون فإنه بدأ لتوه في صنعاء ومازال الوقت مبكراً جداً لنعلم إن كان قد جلب شيئاً جديداً للعائلات . فحتى الآن لم يتغير شيء يذكر في العائلات لأن الرجال متعودين على البقاء في بيوتهم في المساء وأعتقد أن ما أثره التلفزيون هو الطبخ : في اليمن أصناف الأكلات الشعبية قليلة مع أنها لذيذة. وتذاع برامج في التلفزيون تعطي نصائح للعناية بالمنزل وبالأطفال .

و من الملاحظ أن هناك بعض المذيعات لا يلبسن الحجاب ويقدمن طرق تحضير لأطباقٍ جديدة وقد أكلتُ من وقت لآخر أكلات جديدة ولذيذة كانت المذيعات قد جربنها. لكن يظل هذا تفصيلاً صغيراً ، فهناك الأهم في تاريخ اليمن الحديث ، (وأيضاً في تاريخ الثورة) هو وجود المذياع الصغير الذي يسمح للأخبار أن تصل إلى أبعد القرى. وهذا هو ما يسبب دهشتنا أحياناً عندما يبدأ كل شيء بالتغير بسرعة في القرى البعيدة في الجبال التي مازالت حتى الآن معزولة بسبب وعورة الطريق .. حيث بدأ بعض الناس في هذه القرى بالتماشي مع العصر .

- حدثيني أيضاً عن النساء؛ بالنسبة للكثير من هذه التغيرات التي طرأت على المجتمع ، فإننا نستطيع أن نتبينها ونفهمها من خارج الأسرة ، ولكن بالنسبة لما يخص النساء ، ما يسميه المسلمون بأنه (الشرف) ، إنه سري جداً وصعب أن يعرفه الجميع ، و بالنسبة لكِ فإنك كنت تنْفُذين إلى قلب الأسر ، إذاً ما هي مشاكل الزواج ، المهر ، الطلاق.... ؟

- بالتأكيد يا دكتورة ، إن الفتيات و الصبيان قد ازدادت لديهم الرغبة والإرادة بمناقشة الخيار الذي يضعه الوالدان . بالنسبة للمطلقات فقد أصبح لديهن تقريباً حق كامل فلأنهن أصبحن أكثر حرية من الفتيات الأخريات أصبح لديهن إمكانية أكبر ويستطعن أيضا أن يكسبن قوتهن بدون أن يعدن إلى وصاية أب أو أخ يبحث عن كيفية للتخلص منهن بأسرع وقت ممكن . في صنعاء يعتبر مصنع الغزل والنسيج الذي بناه الصينيون بمثابة الملجأ الحقيقي للنساء المطلقات اللاتي لا يردن الزواج مرة أخرى .

أيضاً فقد انخفض كثيراً زواج أبناء العم ، لقد كان ذلك تقليداً شائعاً جداً عند العرب و اليمنيين ومازال مستمراً في الريف ، ولكن حالياً ترفض الفتيات غالباً هذا الزواج فهن يفكرن أنه لو تفكك هذا الزواج فإنه سيجر إلى المشاجرات بين الآباء والأخوة والأخوات ، وقد تتفكك الأسرة بأكملها جراء ذلك .. و يرفضنه أيضاً لسبب آخر ، أن ابن العم لديه حقوق عليها ولا يجب عليه دفع مهر[!] وإن دفع مهراً فإنه يكون ضئيلاً جداً . وفي حالة الطلاق لا يأخذن مؤخراً وإن أخذن مؤخراً فإنه يكون ، أيضاً ، ضئيلاً جداً .

في ما يخص المهر فيجب معرفة أنه هنا يعدُّ المهر تأمينا ضد الطلاق وليس قيمة تافهة للمرأة ومازال اليمنيون يتفاجئون ويضحكون عندما نقول لهم أن عندنا في فرنسا كان المهر ومازال يُعطى من المرأة للرجل . وهنا جزء كبير من المال الذي يدفعه الزوج ، يكون مسلماً للزوجة في حالة الطلاق. إجراء حكيم . حكيم عندما يكون الطلاق بحسب رغبة الرجل متكرراً جداً وسهلاً جداً .

لكن منذ قيام الثورة ومنذ انفتاح اليمن على العالم فإن الأسعار في ارتفاع مهول ، ومهر النساء كسائر الأشياء قد ارتفع : للزواج من فتاة يجب تجهيز عشرة أو عشرين أو ثلاثين ألف ريال ، وهذا يساوي عندنا الكثير ومن المحزن رؤية شباب رائع مليء بالحيوية وقد حُكم عليهم بالعزوبية ولن يستطيعوا الزواج إلا إذا أغرقوا بالديون أو اقتصدوا وجمعوا أموالاً بمشقة حتى يصل عمر أحدهم إلى أكثر من ثلاثين عاماً .

تأثر الرئيس (إبراهيم الحمدي) من هذه الحالة فأصدر قانوناً يحدد المهر بثلاثة آلاف ريال ، ودار النقاش في العائلات ، فالرجال سعداء وساخرون من النساء الغاضبات من هذا القرار . حتى أن الممرضات الشابات قد تكلمن أنهن لم يعدن يردن الزواج وأنه لماذا المشقة والعمل كثيراً من أجل الحصول على دبلوم ولماذا الإنفاق على المنزل إن لم يكن مهرها أكثر من الأخريات (ربما كان لديهن بعض الصواب) .

في الواقع فإن هذا الإجراء قد تبعه موجة طلاق واسعة ، فقد أراد الرجال الاستفادة من هذه الفرصة واستغلال اللحظة التي يستطيعون بها الزواج بامرأة جديدة بمبلغ زهيد . و هكذا فإن الحمدي قد أتبع القانون بفقرة تنص على أنه (في الزواج الجديد المسبوق بالطلاق أو بغير الطلاق فإنه يتوجب على الزوج أن يعطي زوجته الأولى مبلغ عشرة آلاف ريال) ، وفي هذا الوقت بالتأكيد تضاءل تعدد الزوجات بالنسبة للسابق ، فهو يكلف مبلغاً ضخماً ولكن مع ذلك فإن الطلاق والزواج قد استمر وما زالت نساء اليمن الشمالي يجهلن القوانين التي تحمي نساء اليمن الجنوبي من مثل هذه الحالات .

- و لكن ألم تشهدي صراعات خطيرة في العائلات بين الآباء و الأبناء و بين الأمهات و البنات ، صراعات قد تتغير على إثرها حياتهم ؟

- لا ؛ حتى وقتنا الحاضر . فليست الأمهات غيورات من بناتهن، و مع أن الأمهات قد عانين كثيراً عندما تركن لبناتهن حرية التصرف فإنهن بذلك قد ساعدن بناتهن ليصنعن لأنفسهن مصيراً أفضل. بالنسبة للآباء فإني أعتقد أنهم فخورون عندما يشاهدون بناتهم بمستوى عالٍ من الذكاء و يدرسن جيداً و يعملن في عمل جيد، و هذا يجعل الآباء يفتخرون ببناتهم كما يفتخرون بالأولاد .

إن أحد الأسباب التي دفعت الفتيات الصغيرات للاجتهاد في الدراسة هو رؤية أمهاتهن يعشن بالطريقة التقليدية. غالباً ما تأتي الفتيات الصغيرات (جاراتي) عندي في المساء ليستفهمن مني كيف كانت الأوضاع مسبقاً و يحكين لي يومهن في المدرسة فاشرح لهن ما لم يفهمنه في المدرسة. و في أحد الأيام قلت لإحداهن :

« سامية ! أنت تذهبين إلى المدرسة و تدرسين ! ما نفع ذلك بالنسبة لكِ فيما بعد ؟ إنكِ ستتزوجين بلا شك ثم ستبقين في البيت مع أسرتك ...»

فأجابتني:

« ما الذي تعتقدينه ؟ أنني سأعيش حياة كحياة أمي ؟ إن لدى أمي أطفال، و هي تهتم بالبيت و المطبخ و لا شيء آخر !... لا تعرف شيئا و لا تخرج من المنزل و إن كلمها أحدهم فإنها لا تدري ما تقول. بالنسبة لي ، أود العيش مع الآخرين ، أريد امتلاك القدرة على الكلام ، على الفهم ، أريد أن أعرف كيف أجيب حينما يكلمني الآخرون . »

ختــامــاً

و بعد عشر سنوات :

أقيمت في جامعة صنعاء – تحت رعاية وزارة الشئون الاجتماعية و بالتعاون مع اليونسكو– ندوة حول وضع المرأة في الجمهورية العربية اليمنية، و قد استمرت من 3 أكتوبر و حتى2 نوفمبر 1989.

و قد رأس رئيس الوزراء هذه الندوة التي جمعت – كمجلس أعلى للنساء اليمنيات – ممثلات لخمس عشرة جمعية نسائية و قد حضر الندوة حشد كبير من الرجال و النساء المهتمين.

أما نتيجة كل ما قامت به الحكومة منذ نهاية الحرب الأهلية فهو التالي :

- تشكل الطالبات 20% من طلاباً الابتدائية و 11% من طلاب الثانوية .
- تشكل الفتيات 15 % من 33000 طالباً من طلاب الجامعة إجمالاً و 60 % من طلاب كلية الطب خصوصاً .
- استخدمت 15000 امرأة حقها الانتخابي في الانتخابات التشريعية عام 1988. و قد أصبحت 17 امرأة أعضاء في مجلس الشورى و انتخبت اثنتان منهن في المجلس الدائم. و قد حصل ممثلو الحزب الإسلامي – الذي عارضهن – على ثلثي الأصوات في صنعاء و على ثلث الأصوات فقط في بقية البلاد.

على التلفون (1)

في عام 1969 تبدأ الفتاة اليمنية مشاركة الرجل في العمل بسنترالات المدن بصنعاء و الحديدة و تعز.

لأول مرَّة
أُحسكِ في أذنَيَّ
و في خاطري رعشاتٍ تغنّيً
و في مهجتي فيْضَ حبٍ جميل
لأول مرَّة
تطوف بروحي الرؤٌىَ
تحلقُ بي فوق ظنّي
بأجنحة الحُلم في عالم المستحيلْ
لأول مرَّة
أحسكِ في كل سِلكِ
جراحاً تغني و تبكي
على ما مضى من زمانٍ طويل

[1] - أدرجت كلودي فايان هذه القصيدة للشاعر محمد الشرفي مع بعض القصائد الأخرى بالفرنسية و ذلك كي توضح للقارئ الفرنسي رأي الشعراء من قضية المرأة و محاولاتهم الوقوف في صفها و قد أدرجتها على سبيل المثال و قد ترجم هذه القصائد من العربية إلى الفرنسية الكاتب جان لامبير

رسمتكِ أنشودةً من بلادي

برائحةِ البُّن تهفو

على شفة النجم تزهو

و أغنية في فم الغيبِ ترسو

تمدُّ بألحانها للنخيل

تهز الليالي حبا

و تشرق روحاً و قلبا

يُسَلْسِلُها للذرى الخضر فجرُ

و يهمس بالشوق فيها الأصيل

عَلمْتُ بأنَّ البلاد بخيرِ

لأنَّكِ أنتِ بخيرٍ

و أنَّي بخيرٍ

و إن كان [هذا] الطريق طويل

تحدَّي تحدَّي و لا ترهبي

فأنت وجودٌ رقيقٌ رقيقٌ

كقلبِ الصَّبي

على مقلتيكِ تجول الحياةُ

بأشواق (عيسى) و دنيا (النَّبي)

و تندى على منكبيكِ خواطر (مكة) حِيناً

و حيناً رُؤى (يثرب)

و يشمخُ فيك وجود لشعب أصيل

ضعي قدميكِ بأيِّ مكانْ

و شُقي طريقك في كلِّ آن

فقد يُعشِبُ الجدبُ فوقَ الصخورِ

و تمتد عبرَ صحاري الضياع

زهور الخميل

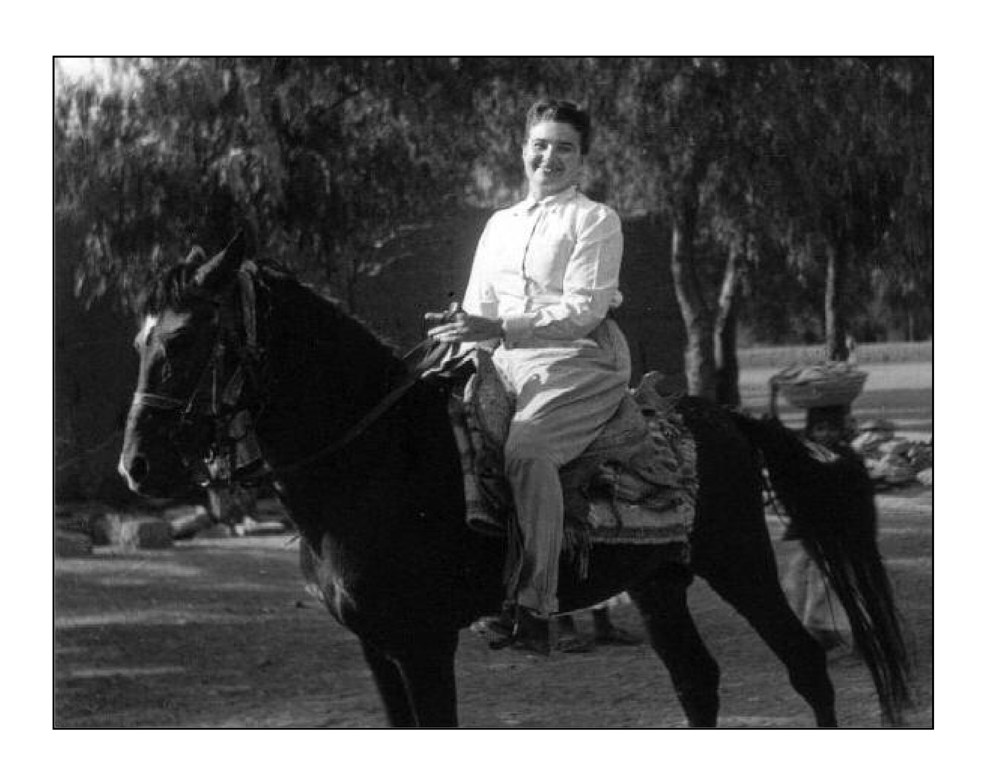
صنعاء يوليو 1969

ملحق الصور

صورة تجمع كلودي فايان (في اليمين) مع فرانس هوس أو نجيبة (في الوسط) و مهيوب زوج فرانس هوس و قد أرسلت لي السيدة إليز سبيفاك (ابنة الكاتبة كلودي فايان) هذه الصورة التي التقطتها عدسة السيدة بيجي كراوفورد (صديقة الطبيبة كلودي فايان) في السبعينات من القرن الماضي



كلودي فايان في صنعاء إبان زيارتها الأولى إلى صنعاء عام 1952



فهرس